فنون اللغة فى القرآن الكريم

رؤية فنية ، وملامح قرآنية

فضيلة الاستاذ الدكتور
أحمد عبده عوض
جامعة أم القرى

الاستاذ الدكتور
علي عبد العظيم سلام
جامعة الاسكندرية

بيت بيتك

فنون اللغة فى القرآن الكريم

رؤية فنية، وملامح قرآنية

فضيلة الأستاذ الدكتور

د/ أحمد عبده عوض

عاوة قرآنية ومراجعة

الأستاذ الدكتور

د/ على عبد العظيم سلام

عاوة علمية وإعداد

بسم الله الرحمن الرحيم

دار (البيت بيتك) للطباعة والنشر والتوزيع.
٤ش الزهور ـ عرب الشعارة ـ قليوب .
ت: / ٠١١٠٤٧٧٤٣٥ـ ٢١٤٥٢٠٥

بطاقة فهرسة أثناء النشر
الكتـاب : فنون اللغة فى القرآن الكريم .
المؤلفان : د/ أحمد عبده عوض
د/ على عبد العظيم .

ط١ ، ص؛ سم .
تدمك / ٨ـ ٠٢ ـ ٦٣٧٧ ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨
أ/ القرآن ـ خواص .
الطبعة : الأولى ٢٠١٠م
رقم الإيداع : ١٧٧٠ / ٢٠١٠م

محفوظة جميع الحقوق
لدار البيت بيتك

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يمثل القرآن الكريم ركيزة أساسية في حياتنا الإيمانية، فمنه نتعلم وبه نهتدي، ومنه ننهل وبه نسلك، وحسب المرء أن يقرأ آياته ليري إعجازًا لانظير له من كل النواحي: لغوية، علميه، نفسية، بيانية، عددية .

وعندما يتفاعل المرء مع آياته فإنه يري جمالاً في التعبير، يصل إلي حد الروعة الخارقة، تخشع لسماعه القلوب، وتقرُ العقول والألسنة أمامه بالضعف والعجز، ويري أسلوبًا، وبيانًا، وتصويرًا، ولغةً، وموسيقي كلها فريدة مُبدعة، لها وقعها في النفس، وتأخذ الألباب، وتدعو إلي التفكر والتدبر في سر هذا الإعجاز المبين .

وقد فتح القرآن آفاق الفكر الإسلامي إذ دعا إلي التبصر والتفكر والعلم، وقد تضمن من العلم قبسا، في الخلق والكون، في صور الحياة، وسنن الله في الطبيعة وفي الإنسان وتكوينه منذ نشأته وحتى موته .

وما زال القرآن كذلك كنزًا للعلم بكل صوره وجوانبه، أينما بحث المتفكر المتبصر في آياته وجد ما يدل علي قدرة الله ووحدانيته، وصدق القرآن .

وقد استخدم القرآن الكريم (التصوير)؛ ليقدم لنا تلك الآيات الفريدة، حيث التصوير باللون، وبالحركة، والإيقاع، والوصف، والحواس، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقي السياق في إبراز صورة من الصور، تتملأها العين والأ ذن، والحس والخيال والفكر والوجدان، وعندما نحلل أسرار الإعجاز في تعبير القرآن، فإننا نري أنه قد أيقظ الإحساس، وعمد إلي الحقائق البدهية الخالدة، ونفذ منهما إلي البصيرة، ويتخطاهما إلى الوجدان، وكانت مادته هي المشاهد المحسة، والحوادث المصورة، وذلك من خلال التصوير والتشخيص باستخدام التخييل والتجسيم الفنيين .

ومن هنا فقد اشتركت الألفاظ المعبرة، والتعبيرات المصورة، والصور الشاخصة، والمشاهد الناطقة، والقصص الكثيرة، وصور النعيم والعذاب .

وكل ذلك يلمس الحس، ويوقظ الخيال، ويلمس البصيرة، ويهيء النفس للاقتناع والإذعان .

وليس عجبًا أن يكون القرآن الكريم ـ بما اشتمله من أحكام وتشريعات وعبادات وتوجيهات وأوامر ونواهٍ هو دستور هذه الأمة ومرجعها الأساس، وسبيلها للعبادة والذكر، وطريقها لفهم الدين والتفقه فيه، وتلقيه بخشوع وتدبر وأدب وبصر .

ولذا فعندما نتلَّقى القرآن الكريم فإن ثمة ما يشدنا إليه، وهو لغته وتراكيبه ودلالاته التي هي أحد أسس إعجازه، التي دُعينا إلي التأمل فيها وفي غيرها ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ انطلاقا من كونه نصًا لغويًا معجزًا، تحدي الله به الجن والإنس، وكان ومازال رسالة السماء الخاتمة إلي الأرض، بما تحمله من نور وهداية ورشد لمن أراد الله لهم ذلك ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾. وعندما نتحدث عن لغة القرآن، فإن أول ما يقفز إلي أذهاننا في البداية هو اللغة العربية ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ التي هي لغة القرآن، وبها أنزل، وبها فسر، وبها تحدث رسول الله (ﷺ) وشرع وسن، وهي الطريقة المثلي للتعرف علي تعاليم الإسلام، يقول الثعالبي: (العربية خير اللغات والألسنة، والإقبال عليها من الديانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد).

ويقول السيوطي: (ولاشك أن علم اللغة من الدين؛ لأنه من فروض الكفايات، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة).

وقال الفارابي: (القرآن كلام الله وتنزيله، ولا سبيل إلي علمه وإدراك معانيه إلا بالتبحر في علم هذه اللغة).

ولسنا بصدد حصر مناقب اللغة العربية وفضلها، إلا أن ما نؤكد عليه هنا، هو لغة القرآن ذاتها من حيث التراكيب والمعني التي هي كما سبق ـ أحد مناط الإعجاز ـ هذه اللغة تحتاج من المتلقي إلي كثير تأمل وتدبر، ويتأتى ذلك من خلال الاستماع إلي كتاب الله وقراءة آياته، حتى يقترب قدر استطاعته من دلالات مفرداته وتراكيبه ويستشعر إيحاءتها، فينمو بذلك حسه اللغوي، ويكتسب خبرة بالمفردات والتراكيب، وأساليب التعبير التي تعينه ـ فيما بعد ـ علي الممارسة الحية لتلك اللغة، من خلال ما يستقبله قبل ذلك (استماعًا وقراءة) ويكون ذلك بالتعبير الجيد بها (تحدثا وكتابة) .

ذلك أن الاستماع والقراءة هما وسيلة الإنسان إلى اكتساب خبرة لغوية تُمكنه من التعبير باللغة، وذلك بالتحدث والكتابة، فيكتمل بذلك تمكنه من ممارسة فنون اللغة جميعا .

معني ذلك أننا نمارس اللغة استقبالاً وتعبيرًا من خلال أربعة فنون هي : (الاستماع ـ القراءة ـ التحدث ـ الكتابة) وهذه الفنون في أصلها مهارات أساسية في ممارسة اللغة .

وهذه الفنون الأربعة أساسية في الاستقبال والتلقي والتعلم والممارسة والاستعمال والإرسال والفهم والاتصال اللغوي، لكل ذلك فقد عبر القرآن الكريم عن تلك الفنون، وأشار إليها في مواضع متعددة من آياته؛ حيث الإشارة باللفظ داخل سياق معين .

وإذا كنا قد أُمرنا بتدبر آيات الله تعالي، وفهم معانيها، ومحاولة إدراك بعض دلالاتها فهذا ما سنتطلق منه هنا مع (فنون اللغة) كما أشارت إليها الآيات؛ حيث تتناول كل فن من تلك الفنون، والتعريف به، وبيان أنواعه ومناشطه وإبراز أهميته، ثم نتناول ذلك الفن اللغوي فى القرآن الكريم من حيث الصيَّغ اللغوية والاشتقاقية التي ورد عليها،وتصنيفها، وحصرها، ومحاولة فهم معانيها ودلالاتها من خلال السياق، ثم استنباط السمات العامة للمواضع التي ورد فيها، وذلك بشيء من التدقيق والتأمل .

ويقع تفصيل ذلك في تمهيد ، وأربعة فصول ، وخاتمة .

أماالتمهيد، فيلقي الضوء على فنون اللغة، بوصفها مصطلحا له دلالته، ومضامينه .

أماالفصل الأول: فيتناول الفن اللغوي، الأول، الاستماع، ويتناول الفصل الثاني: فن التحدث، وأما الفصل الثالث: فيتناول فن القراءة، والفصل الرابع: نلتقي بالفن الرابع وهو الكتابة .

وفي كل فصل من هذه الفصول الأربعة دراسة شاملة تتناول الفن اللغوي موضوع المعالجة، محددة أبعاده الفنية بدءا بتحديد مفهومه، وانتهاء بتقديم التوجيهات الفنية اللازمة لممارسته علي أكمل صورة، مرورًا بكيفية حدوث كل فن،وخطواته وعملياته وأهميته، وأنواعه، ودوره الإنساني والديني، ثم تنتقل الدراسة في كل فصل بعد ذلك إلى تحديد الملامح القرآنية لكل فن باستقراء ما ورَد قرآنًا بشأنه. وفي خاتمة الكتاب لنا وقفه نتعرف من خلالها على العلاقات بين فنون اللغة وبعض القضايا الإيمانية .

وفي نهاية كل ذلك قائمة تصنيفية بكل الصيغ المعبرة عن فنون اللغة، التي وردت في القرآن الكريم (بيبلوجرافيا) تسهيلا للتعرف عليها، وسبيلا لحصرها، ودراسها لمن أراد ذلك .

وبعـــــد :

فإن هذا الكتاب محاولة متواضعة لتأصيل هذه المصطلحات فـــي التـــراث العربي الإسلامي، انطلاقًا من إيمان عميق بأن في القرآن الكريم متـــسعًا لمـــا أفرزته القريحة البشرية، وتفرزه قديما، وحديثًا من أساليب لتفـــسير الـــسلوك الإنساني وتوجيهه، بل إنه أسبق تاريخًا، وأحكم توجيهًا، وأرقي تفسيرًا .

وانطلاقًا من أن اللغة العربية ــ هي لغة القرآن الكريم ــ هي الأفصح كلمة، والأدق تعبيرًا، وأن العرب القدماء كانوا على وعي تـــام بمـــا نحـــاول اليـــوم جاهدين، عاجزين أن نُعلمه أبناءنا لكي يمارسوا اللغة العربية ممارسة تليق بها تاريخًا، وتقترب منها فصاحة، وترقي إليها بيانًا وتعبيرًا، فقد كانوا مـــستمعين بالفطرة يعرفون للاستماع آدابه ومهاراته، وإلا فكيف وصلنا ما نتدارسه اليوم من آدابهم قبل ظهور الكتابة ؟ وكانوا متحدثين وتلك فصاحتهم التـــي تحـــداهم فيها القرآن الكريم، علي مدي براعتهم في هذا الفن اللغوي، وبظهور الكتابـــة برعوا فيها واشتهر منهم الكتاب وأصحاب الفكر، وليس يخفي علـــي أحـــد أن الكاتب الجيد هو بالضرورة قارئ جيد .

من هذه المنطلقات جاءت فكرة تأصيل هذه المصطلحات فـــي الاســـتعمال العربي والقرآني، ولم تأت هذه المحاولة من فراغ، وليست مقطوعة الـــسياق، فلكل من المؤلفين قراءات بحثية، ودراسات تدور في فلك فنـــون اللغـــة، وقـــد امتزج كل ذلك في الكتابة بشكل عز معه إثبات المصادر في مواضعها .

وتقتضي الأمانة العملية الإشارة إلي أننا قرأنا كل ما وقع في متناول أيدينا حول فنون اللغة من كتابات عربية، وأجنبية ربما لأغراض أخري غير تـــأليف هذا الكتاب ولكنها بالضرورة، كانت ــ فضلاً عن أبحاثنا العلمية في هذا المجال

ـ مخزونًا خبريًا اهتدينا به في بلورة فكرة هذا الكتاب، الذي يتوقع أن يسد جوعة المكتبة العربية في مجال الدراسات التي تجمع بين المنظور اللغوي، والمنظور القرآني، وفي مجال فنون اللغة العربية علي وجه التحديد .

وجدير بالذكر أننا قد اهتدينا في استقراء الدلالات التفسيرية لألفاظ هذه الفنون الواردة قرآنا، بالمعاني اللغوية التي أوردتها المعاجم، فضلاً عن الدلالات الاصطلاحية لهذه المصطلحات في ضوء سياق الآيات القرآنية، وذلك بعد أن أعيانا البحث في كتب التفسير عن شيء يمكن أن يقترب بنا من دلالات هذه الألفاظ تفسيرًا، وتَبْقي الإشارة إلي أننا لا نزعم الإحاطة بكل معاني القرآن الكريم، ولا نزعم أن ما أثبتناه في ثنايا هذا الكتاب من معانٍ هو الدلالة القاطعة للفظ القرآني .... وحسبنا في ذلك أن اجتهدنا راجين الحق والصواب، آملين في نفع عام للقارىء، وفي إضافة جديدة إلي المكتبة العربية .

وإن تكن تلك الإضافة مثمرة ونافعة، فذلك بفضل من الله وتوفيقه، وإن تكن دون ذلك فهذا من أنفسنا .

والله نسأل أن يتقبل منا عملنا هذا، الذي نرجوه خالصا لوجه الله تعالي، وأن يجعله ذخرا لنا يوم القيامة، وأن ينفعنا بكتابه الكريم، ويجعلنا من أهله، والعاملين به وأن يُشفعه فينا يوم الدين ... آمين .

والحمد لله رب العالمين

المؤلفان

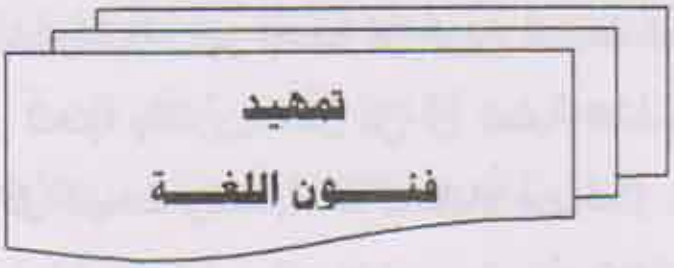

اللغة وسيلة الإنسان للاتصال بغيره من أفراد المجتمع؛ حيث تتحقق الوظيفية الاجتماعية للغة من خلال الاتصال اللغوي بين منتج للغة، أي معبر بها، وبين مستقبل لها، أي المتلقي .

وثمة علاقة بين المنتج والمستقبل مؤداها أن المنتج لا يعدو إنتاجه اللغوي أن يكون تحدثا أو كتابة، وليس أمام المُستقبل إلا الاستماع أو القراءة.

وكل من الاستماع، والتحدث، والقراءة، والكتابة يتضمن استعمال اللغة، ففي الاستماع والقراءة تستقبل الفكرة من خلال اللغة، وفي التحدث والكتابة يكون التعبير عن الفكرة، وتوصيلها بواسطة اللغة .

ومن خلال هذه الفنون الأربعة يكون استقبال اللغة، واستماعها، ويكون التعبير بها تحدثا أو كتابة. ولا يتصور أن يحدث موقف اتصال لغوي دونما تحدث واستماع، أو كتابة وقراءة، فهذه فنون الاتصال اللغوي التي تتحقق من خلالها الوظيفة الأساسية للغة في المجتمع، وهي الفهم والإفهام .

فنون اللغة إذن هي ألوان النشاط الاستقبالي والتعبيري،التي تحدث بواسطتها عملية الاتصال اللغوي، وتتمثل في: الاستماع، والتحدث، والقراءة والكتابة.

ويمكن القول أن اللغة بكافة عناصرها متضمنة في هذه الفنون، فالاستماع والتحدث، والقراءة، والكتابة، هي كل أشكال المعالجة اللغوية .

ومصطلح فنون اللغة يركز على استخدام اللغة للاتصال بالآخرين، والتعبير عن الأفكار والمشاعر من خلال اللغة، آخذًا في الاعتبار النواحي

الابتكارية في استخدام اللغة، فهو يصف كل ألوان النشاط المتصلة باللغة .

وثمة بُعد آخر لنعتها بالفنون تتمثل في أن عملية الاتصال اللغوي سواءً أكانت تعبيرًا من خلال التحدث والكتابة، أم استقبالاً من خلال القراءة والاستماع ليست عملية آليه من قبل المرسل والمستقبل، بمعني أن كلا منهما ليس سلبيًا في هذه العملية، فنحن عندما نتحدث أونكتب إنما نضفي ذواتنا على الرموز والوحدات، اللغوية؛ لتخرج لغتنا مصطبغة بخبراتنا السابقة وخلفياتنا اللغوية، ومشاعرنا، وأفكارنا .

وكذلك الأمر عندما نقرأ أو نستمع لنص لغوي، فنحن نفسر هذه الرموز اللغوية في ضوء خبراتنا وخلفياتنا اللغوية، وحالتنا الشعورية والمزاجية، وظروف الموقف الذي نستقبل فيه .

وعلي الرغم من أن الرموز اللغوية يعالجها كل من المرسل والمستقبل وحده، فإن أسلوب فهمها والإفهام بها يختلف من مرسل لآخر، ومن مستقبل لآخر، ويتوقف ذلك علي قُدرة كل منهما على تطويع هذه الرموز لخدمة فكرته، والهدف من الاتصال، وقدرته على الإبداع في إنشاء الرسالة اللغوية وتفسيرها، ولعل ذلك ما يحدد أبعاد المقولة الشائعة بأنه: "إذا كان الأديب مبدعًا فإن الناقد أكثر إبداعًا "، فالأديب منتج للغة، أي مرسل يستخدم كل طاقاته التعبيرية في إخراج عمل أدبي، يتلقاه الناقد، فيبدع في تفسيره إبداعا من نوع آخر؛ حيث يخرج ما في باطن العمل الأدبي؛ ليطفو علي السطح فيصبح سهل المنال على من تعوزهم القدرة على الغوص فى الأعماق .

وفي اختلاف النقاد والمفسرين حول النصوص اللغوية، أيا كان نوعها ما يؤكد مقولتنا بأننا نفهم اللغة، ونفهم بها في ضوء خبراتنا وثقافتنا .

وربما لا يحتاج هذا الأمر إلي كثير إفاضة إذا علمنا مدى ما يُحدثه سوء الاستقبال أو التعبير من خلل في عملية الاتصال اللغوي، وإنما يحدث هذا لعلة

في المرسل أو المستقبل ترجع غالبا إلي عدم دراية أيهما باللغة واستخداماتها، ومن أمثلة ذلك ما حدث بين الشاعر الأموي " ذي الرمة " وأحد ممدوحيه،

فقد روى أن ذا الرمة مدح " بلال بن أبي موسى الأ شعري " فكان من بين ما مدحه به هذا البيت :

رأيت الناس ينتجعون غيثًا *** فقلت لصيدح انتجعي بلالا

(وصيدح: هي ناقة ذي الرمة . وانتجع، أي طلب الغيث والكلأ).

فلما سمع بلال هذا البيت قال لغلامه: يا غلام، مر لصيدح بقت ونوي، يريد أن ذا الرمة لا يحسن المدح. والحق أنه أساء استقبال ما أرسله ذو الرمة، إنما أراد أن ينتجعه وليست الناقة .

ومرجع هذا الفهم الخاطئ أن بلالاً أخذ النص على ظاهر معناه، وأمثلة هذا غير قليلة في تراث القدماء، ولعل أشهرها رواية ذلك الأعرابي الذي وضع الخيط الأبيض، وبجانبه الخيط الأسود ليمسك عن الطعام والشراب إذا استطاع التمييز بينهما، وذلك عندما سمع قول الحق سبحانه وتعالي: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾(البقرة :١٨٧).

أما في ممارسات المحدثين فلا سبيل إلي حصر تلك المواقف التي يحدث فيها خلل في عمليات الاتصال، ذلك بسبب العجز الواضح عن فهم اللغة، والتعبير بها، يتضح من ذلك أن ثمة إضافات كثيرة إلي الرموز اللغوية مصدرها كل من المرسل والمستقبل، وموقف الاتصال، والرسالة اللغوية ذاتها، هذه الإضافات الموقفية والخبرات السابقة تجعل من الاستماع، والقراءة، والكتابة فنونا لغوية تعنى بكل الظروف والملابسات التي تعتري الموقف الاتصالي، وتؤثر على كل من المرسل والمتلقي .

وكم من المواقف التي تَعْرض لنا في حياتنا اليومية نستمع فيها إلي كلمة، أو عبارة فتسبب لنا شعورًا بالضيق أو الحرج أو تحطم أملنا في شيء ما، أو تأتي عكس توقعاتنا من شخص ما ثم لا نُعَوِل كثيرًا على الكلمة بحروفها، أوالعبارة بنصها، وإنما نُعَوِل كثيرًا علي تعبيرات وجه مَنْ قالها أو حركات يديه، أو درجة صوته، أو السياق الذي وردت فيه، أو الحالة المزاجية لمن أرسل هذه الكلمة أو تلك العبارة، ثم لا نلبث أن نهدأ بعد أن يوضح لنا هذا المرسل ـ في جلسة عتاب ـ سبب ارتفاع صوته، أو عبوس وجهه... وغيرها، وأنه لم يكن يقصد ما فهمناه، وإنما حدث هذا الخطأ في الفهم بسبب هذه الظروف أو تلك، فالمشكلة هنا ليست في الرمز اللغوي نفسه ، وإنما في ملابساته .

ولكن ما العلاقة بين تلك الملابسات ، وبين ممارسة اللغة ؟

الحق أنه إذا كانت الملابسات في أشباه الموقف السابق عارضـــه ووليـــدة ظروف قد تكون طارئة فإن اللغة في جميع مواقف استخدمها خاضعة لمتغيرات الموقف، والرسالة، والمرسل، والمتلقي، إما بغير قصد من أحد المتلقين، وهذا غالبًا ما يكون لظروف طارئة على أحدهما، لا يستطيع السيطرة عليهـــا، كمـــا رأينا في المثال السابق، أو نتيجة عدم فهم أحدهما للغة المستخدمة وعلاقتهـــا بموقف الاتصال، وإما أن يكون بقصد مثل ما يحدث في مواقف كثيـــرة مثـــل : سرد خبر، حكاية قصة، حكاية طرفة، إلقاء الشعر، المجاملة، مخاطبة الكبـــار، مخاطبة الآباء، التحدث إلي طفل، مخاطبة الرؤساء في العمل أو فـــي غيـــره، التحدث مع الأصدقاء، كتابة الالتماسات، كتابة طلب للحصول على وظيفة، إلقاء خطبة حماسية، وغير ذلك مما يعرض للإنسان من مواقف تتطلب منه استخدام اللغة ... ففي مثل هذه المواقف تختلف اللغة المستخدمة .

ويكون اختلافها من حيث انتقاء مفرداتها، وطريقـــة أدائهـــا، ووضـــوح معانيها، وطريقة عرض الموضوع نفسه، حتى أن طول الجملة يكون محسوبًا على الإنسان في مواقف معينة، هذا فضلاً عن الأحوال المزاجية التي تعتـــري المرسل في مثل هذه المواقف، ونكرر ثانية أن هذه المتغيرات تختلـــف مـــن موقف لآخر، ومن مرسل لآخر .

ومرجع ذلك إلى أن اللغة ليست مجرد كلمات، يُنطق بها، فلهجة الحديث، وتعبيرات الوجه، وكثير من الحركات الجسمية التي تصاحب الكـــلام، وانتقـــاء كلمات معينة، وغير ذلك مما يتضمنه موقف الاتـــصال يلقـــى ظـــلالاً ومعنـــي وإحساسًا معينًا علي ما يقال .

هذا فضلاً عن أن فهم اللغة وبعض ما يتعلق بها إنتاجًا واستقبالاً من حيث تكوينها وسماعها مرتبط بسلسلة من العمليات العقلية التي يختلف فيها الأفراد عن بعضهم، ولعل هذا الملمح يمكن استقراؤه، من قوله صلي الله عليه وسلم: " أمرت أن أخاطب الناس علي قدر عقولهم " وليس في ذلك تقليل من شأن أحد، إنما هو الحرص على أن تبلغ الرسالة مستقبِلها كاملة، واضحة المعاني بالنسبة له، فيتحقق الهدف من الاتصال .

ولعلنا لا نضيف جديدًا إذا قلنا إنه من نعم الله تعالي الجليلة أن هيأ للإنسان أسباب ممارسة هذه الفنون؛ ليميزه بذلك عن سائر المخلوقات، فقد زوده الله سبحانه بأجهزة الإرسال والاستقبال الصالحة لمعالجة اللغة في شكليها: الاستقبالي، والتعبيري، ممثلة في السمع، والبصر، وأعضاء النطق والكتابة، فضلا عن العقل الذي يقوم بكل العمليات اللازمة للكشف عن معني الرموز اللغوية، أوتنظيمها، وترتيبها بالشكل الذي يؤهلها لنقل ما يريد الإنسان التعبير عنه من أفكار ومشاعر،هذا بخلاف المخ الذي هو أداة كل العمليات العقلية ومحورها، وبه مراكز للسمع والبصر والنطق وغيرها .

وبهذا لعلنا نكون قد أوضحنا المقصود بفنون اللغة، وأهميتها في حياة الإنسان اليومية وأنها نُعتت بالفنون لشمولها كل العناصر غير اللغوية المتضمنة في موقف الاتصال فضلاً عن العناصر اللغوية، مما يدخل فيها عناصر الإبداع الذاتي لمن يستخدم اللغة تعبيرًا واستقبالاً .

وفنون اللغة علي نحو ما تقدم ــ هي محور النشاط اللغوي للإنسان، ولما كان القرآن الكريم هو المنهج الشامل والدستور الكامل الذي فصل الله فيه مصالح العباد فيما يتعلق بأمور دينهم ودنياهم، فقد حاولنا مجتهدين ــ وحسبنا المحاولة والاجتهاد ــ دراسة ما ورد في القرآن الكريم عن الاستماع، والتحدث،

والقراءة والكتابة، في محاولة لتأصيل هذه المصطلحات من ناحية، واستنباط ما يمكن أن يقنن ممارساتنا هذه الفنون من توجيهات قرآنية من ناحية أخري، ومن ثمَّ فقد تمحورت هذه الدراسة حول محورين أساسيين: أحدهما :

توضيح الأبعاد والحدود النظرية لكل فن من هذه الفنون، بما يحدد ملامحها ومتضمناتها، والآخر: حصر الوحدات اللغوية المعبرة عن كل فن منها في القرآن الكريم والاجتهاد في بيان دلالاتها التفسيرية واستنباط التوجيهات المستوحاة من هذه الدلالات .

وفي الفصول التالية تفصيل لذلك .

الفصل الأول

١ ـ مقدمة .

٢ ـ مفهوم الاستماع .

٣ ـ أنواع الاستماع .

٤ ـ أهمية الاستماع .

٥ ـ الاستماع وتلقي علوم الدين .

٧ ـ كيف تكون مستمعا جيدا ؟ .

٨ ـ الاستماع في القرآن الكريم .

يعرض هذا الفصل للاستماع ـ الفن اللغـوي الأول ـ فيبـدأ بتحديـد مفهوم الاستماع لغة واصطلاحًا، موضحًا خطورة دوره في حياة الإنـسان، ثـم يتناول عملية الاستماع، وصفًا وتحليلاً موضحًا الخطوات الرئيسة التي تحـدث من خلالها، ومتطلبات كل خطوة من هذه الخطوات، والعمليات العقلية المتضمنة فيها.

ثم يعرض لأنواع الاستماع معرفًا بكل نوع،وتطبيقاته،ومتطلبات ممارسته، ثم يتناول أهمية الاستماع، ودوره في نمو الحياة الإنـسانية، ونقـل الثقافـة، وموقعه من الممارسات اللغوية الأخرى، ودوره في تلقي علوم الدين.

ويقدم ـ بعد ذلك ـ بيانًا بمواصفات المستمع الجيد، متضمنًا أهم الشروط التي ينبغي توافرها في المستمع ضمانا لتحقق فاعلية الاستماع .

وبعد تحديد الملامح الفنية للاستماع بوصفه ممارسة لغويـة تـؤدى دورًا حيويًا في حياة الإنسان تتجه الدراسة في هذا الفـصل وجهـة أخـري؛ حيـث تنصرف إلي إحصاء الصيغ اللغوية المعبرة عن الاستماع في القـرآن الكـريم وتوضيح دلالاتها التفسيرية؛ لتحديد الملامح القرآنية للاستماع .

يولد الوليد البشري (الطفل) وليس أمامه من سبيل للتعرف علي بيئته اللغوية سوى الاستماع؛ حيث يستهل به الطفل حياته، وهو أول فن لغوي يطل على الآخرين من خلاله؛ ولذا فهو الوسيلة الأولي بل والوحيدة التي تشكل خبرته اللغوية في مبدأ حياته .

الاستماع ليس عملية آلية تحدث تلقائيا وبدون وعى، وليست عملياته قاصرة علي مجرد الاستقبال الفسيولوجي للأصوات اللغوية، بل إنه أخطر عملية تعرض للإنسان في حياته، فمن خلاله تتكون خبرة الطفل باللغة وعن طريقه يتحدد سلوكه ــ بعد ذلك ــ تجاه الآخرين في مواقف التفاعل اليومي، بل إن الاستماع ــ في عصرنا هذا ــ يذهب إلي أبعد من ذلك، ففي عصر يتزايد فيه كم المواد المسموعة بصورة تُعجز الإنسان عن ملاحقتها، ويتقلص فيه كم القراءة بسبب انشغال الناس بالسعي وراء الأقوات من ناحية، وارتفاع أسعار المادة المقروءة من ناحية أخري، في عصر هذه بعض أبرز مواصفاته فإن الاستماع يتدخل بصورة خطيرة في تشكيل ذوق الإنسان وفكره، وتوجيه مشاعره قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ التحريم : ٣.

مفهوم الاستماع :

الاستماع: هو مصدر الفعل (استمع) . ويفرق صاحب " مختار الصحاح " بين صيغتي الفعلين (سمع ـ استمع) فيقول: سمع الشيء يسمعه سماعا وسمعًا. واستمع له: أي أصغى .

وسمع من: السمع: حس الأذن " وقال بعضهم السمع المصدر، والسمع : الاسم والسمع أيضا: الأذن، والجمع أسماع .

وقوله تعالي:﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ، أي ما تسمع إلا من يؤمن بآياتنا، وأراد بالإسماع هنا: القبول والعمل بما يسمع. وسمعه الصوت واسمعه: استمع له وتسمع إليه: أصغي، فإذا أدغمت قلت اسمع إليه .

وقالوا: ذلك سمع أذني وسمعها وسماعها وسماعتها أي أسماعها، قال الشاعر:

سماع الله، والعلماء أني *** أعوذ بخير حالك، يا ابن عمرو

وقولهم: سمعك إلي أي اسمع مني، وكذلك قولهم: سماع أي اسمع.

وقد تأتي سمعت بمعني أجبت، ومنه قولنا: سمع الله لمن حمده، أي أجاب حمده وتقبله .

ورجل سميع: سامع، والسميع من صفاته عز وجل. والسميع المسموع أيضا .

والسميع: ما وقر في الأذن من شيء تسمعه، ويقال: ساء سمعا فأساء إجابة أي لم يسمع حسنا، ورجل سمّاع إذا كان كثير الاستماع لما يقال وينطق به . ويقال: ذهب سمعه في الناس وصيته أي ذكره .

والسماع: ما سمعت به فشاع وتكلم به، وكل ما التذته الأذن من صوت حسن .

ويتضح مما تقدم:ـ أن ما أوردته المعاجم من معانٍ لغوية يتضمن كل ما يتعلق بالاستماع منذ بدء استقبال الأذن الصوت اللغوي إلى استجابة المستمع إلي المرسل، وأنه ثمة مصدرين هما: السماع والاستماع، ويشير كل منهما إلي ما يحدث أثناء استقبال الأصوات اللغوية، وقد استخدم القرآن الكريم الصيغتين في مواضع مختلفة منه، سوف نوضحها في موضعها من هذه الدراسة .

وإذا كانت المعاني اللغوية للاستماع قد تضمنت هذه الأبعاد فإن المفهوم الاصطلاحي للاستماع يشير إلي تلك العملية المعقدة التي تحدث في مستويات عديدة، وتتراوح بين الإدراك الحسى للأصوات اللغوية عن طريق الأذن، وبين مستويات التجريد في التفكير، فهو عملية تستقبل من خلالها اللغة الشفوية بجهد يبذله المستمع يتمثل في الانتباه إلي مصدر الصوت، والإنصات لتفاصيله، والتمييز بين الأصوات المسموعة وتفسيرها وفهمها، وتقويمها، ونقدها .

فالاستماع إذن عملية تعتمد علي التفكير بالدرجة الأولي، بل وتتطلب من المستمع أن يكون متفرغًا تمامًا للاستماع، واعيًا بكل عناصر الموقف الذي يستمع فيه، مفسرًا، محللاً، وناقدًا لما استمع له، فالإنسان حينما يستمع مثلا ـ إلي محاضرة، أو حديث إذاعي يعنيه أو صديق يحدثه في بعض أمور تعنيهما، أو أمر يصدر إليه من جهة أعلي واجب التنفيذ، أو ما شابه ذلك فإنه لابد من أن ينتبه جيدا، ويفسر، ويحلل، ويربط، ويستنتج، حتى تتحقق الفائدة كاملة من الاستماع .

ولا يخفي علي أحد منا فداحة ما يمكن أن يحدث بسبب خطأ في استقبال أي رسالة مسموعة، فهذا الخطأ لو كان مستقبله طفلاً فإنه يستمر في تكراره إلي أن يكبُر، وربما بعد ذلك إذا لم تُهيأ له فرصة لمعرفة الصواب، أما إذا كان مستقبله كبيرا فإنه يوقعه في حرج، أو يضيع من بين يديه فرصة ثمينه، أو قد يتسبب في خسارته ماديًا في صفقة أو أي عمل تجاري، أو ما إلي ذلك من مثل هذه المواقف، التي يكون الخطأ فيها ناتجًا عن خلل في استقبال الرسالة اللغوية المسموعة، إما بعدم التمييز بين عناصرها، أو بعدم الربط بين عناصر الموقف الاتصالي، أو بعدم فهم مضمون الرسالة .

ومن ثمَّ يتضح أن الاستماع عملية مركبة تحدث من خلال مستويات مختلفة، تحدد طبيعتها، وقد فسرت عملية الاستماع تفسيرات متباينة، بيد أننا يمكن أن نشير إلي كيفية حدوث الاستماع في ضوء تفسير (كيلوج) لهذه العملية .

ثانيا : كيف يحدث الاستماع ؟.

ذكرنا أن الاستماع عملية معقدة تتراوح بين الإدراك الحسى للأصوات عن طريق الأذن، وبين مستويات التجريد في التفكير، والاستماع ـ علي هذا النحو ـ يحدث في حياتنا اليومية، ربما دون وعي قليل بما يحدث من عمليات لفهم الرسالة اللغوية المسموعة، ومن ثمَّ فإنه من الضروري أن نتعرف علي أهم الخطوات أو المراحل التي يحدث من خلالها الاستماع .

يحدث الاستماع من خلال ثلاث خطوات متتالية، تعد كل منها تمهيدًا للتى تليها، بل إن الاستماع في الخطوة الثالثة ـ مثلاً ـ لا يمكن أن يحدث إلا إذا حدثت الخطوات الأولي والثانية على الترتيب، وفيما يلي تفصيل لهذه الخطوات:

أولاً : ـ تستقبل الأذن الموجات الصوتية، لترسلها إلي المخ من خلال نظام العصب السمعي، وإلي هنا تنتهي الخطوة الأولى من خطوات الاستماع، وكل ما تتطلبه هذه الخطوة هو حدة السمع والأجزاء التي لها علاقة بآليات السمع عند الفرد، والاستماع في هذه الخطوة هوعملية استقبال فسيولوجي للأصوات اللغوية.

وهذه الخطوة تبدو في غاية الأهمية بالنسبة لعملية الاستماع ككل؛ حيث تعتمد اعتمادًا كليًا علي حاسة السمع (الأذن)،وهذه الحاسة مع مكونات الجهاز السمعي جميعًا هي مصدر الاستقبال الخارجي الموصل إلى المخ، أي أن عمل العقل في المسموع تالٍ لهذه العملية الفسيولوجية، وتعد سَلامة حاسة السمع أساسًا جوهريًا لحدوث الاستماع؛ حيث إن أي خلل في أعضاء السمع من شأنه أن يؤدي إلي التشويش علي الرسالة اللغوية، أو إعاقة وصولها إلي المخ؛ لذلك فإنّ الطفل الأصم لا يستطيع أن يتفاعل مع مَنْ حوله باللغة؛ لأن

جهاز السمع عنده معطل؛ حيث لا يصل أي رمز لغـوي إلي العقل، ومن ثمّ فلا رصيد لديه من الخبرة اللغوية كي يتعامل بها مع غيره .

أما في حالات ضعف السمع فإنه يمكن التغلب عليهـا بـالأجهزة الطبيـة الخاصة بذلك؛ حيث تستخدم لتقوية الصوت الداخل إلي الأذان بما يتناسب مـع درجة سمع المريض فيمكنه بذلك أن يتفاعل مع غيره بسهولة، ودون الحاجـة إلي إشارات بل ويمكنه أيضا أن يمارس الاستماع عند الخطوتين التاليتين.

ثانيًا :ـ بعد استقبال الأصوات اللغوية في الخطوة السابقة تبـدأ عمليـة التمييز السمعي بين عناصر الرسالة المسموعة، والتمييز هنا يعتمد علي تحديد التشابهات، والاختلافات بين الأصوات اللغوية المسموعة مـن حيـث النطـق، والإيقاع، ودرجة الصوت، ومخرجه .

وعملية التمييز السمعي مرحلة انتقالية في مسار الصوت اللغوي منذ بـدء دخوله إلي الأذن إلي أن تبدأ عمليات المعالجة العقلية، وهي عمليات تعتمد فـي أحد جانبيها علي حاسة السمع، إذ تعتمد على دقة الأذن وحـدتها فـي تمييـز عناصر الرسالة الصوتية،وتعتمد في جانبها الآخر علي العقل في تحديد التشابه والاختلاف، ودرجة الصوت ونطقه .

والفكرة ببساطة أن كل الأصوات اللغوية التي يسمعها الإنسان في حياتـه مسجلة ومختزنة في عقل الإنسان ضمن ما يسمي بالذاكرة طويلة الأمد، وهـذه الأصوات مسجلة بمعانيها المختلفة التي ارتبطت بها في مواقف سماعها، وحتى تتحدد معاني الأصوات التي استقبلت في الخطوة الأولي فلابـد مـن تمييزهـا وتنقيتها وتحديد التشابهات والاختلافات بينها، تمهيدًا لتحديد معانيها عن طريق الربط بينها وبين ما هو مختزن في الذاكرة ، وذلك في الخطوة الثالثة .

إن ما يحدث في هذه الخطوة أمر ضروري لإحداث التنسيق بين ما يستقبل وبين ما هو مختـــزن في الذاكرة حتى يســـهل بعد ذلك تحديد معاني الأصـــوات المســـتقبلة في الخطوة التالية .

ثالثا:ـــ بعد استقبال الحواس في الخطوة الأولي، والتمييز السمعي في الخطوة الثانية يحدث الفهم في هذه الخطوة؛ حيث يتجاوز العقـــل تمييـــز المتـــشابهات والاختلافات الصوتية إلي فهمها في ضوء الخبرات السابقة، ويحدث الفهم هنـــا عند أربعة مستويات، يرتبط كل منها بعملية عقلية مختلفة وهذه المـــستندات هي:ـــ

أ ـــ مستوي استدعاء البيانات :

عند هذا المستوي يحاول العقل استدعاء البيانات اللازمة لمعالجة الرموز الصوتية المستقبلة من مخزن الذاكرة، والعملية العقلية اللازمة لهذا المـــستوي هي: التذكر؛حيث يتذكر الإنـــسان الأصـــوات اللغويـــة والمعـــاني والحـــوادث، والمواقف والقرائن التي تعينه على بلوغ معني ما يستقبله من أصوات، وعنـــد هذا المستوي من الفهم يجب أن يحتفظ المستمع بعناصر الرسالة المـــسموعة، فيكون قادرا علي تذكر الفكرة الرئيسة لما سمع، وشرح الأفكار المتضمنة فيها بكلمات بسيطة، وتحديد التفاصيل المهمة فيهـــا، وتلخيـــصها وتـــذكر وتتـــابع التفاصيل.

ب ـــ مستوى التحليل :

عند هذا المستوى يميز العقل بين ما هو رئيس ومـــا هـــو فرعـــي فـــي المسموع، ويشتق المعاني غير المعروفة مـــن الـــسياق، ويـــستنتج مـــا وراء تعبيرات المتحدث ونبرات صوته، ويفسر إشارات السياق الصوتية والعناصـــر الانتقالية في الحديث، ويميز بين وثيق الصلة بموضوع الحديث وغيـــر وثيـــق

الصلة به، ويحدد الأدلة التي يسوقها المتحدث، ويكتشف العلاقات بين الأسباب والنتائج، والعملية العقلية اللازمة لهذا المستوى هي: التفكير الاستنباطي .

ج ـ مستوى التركيب:

عند هذا المستوى يربط المستمع ذهنيًا بين الخبرات والمعاني والرموز الصوتية، ويربط بين الأفكار المسموعة والخبرة السابقة، ويربط بين الوحدات الفكرية فيما يسمع، ويرتب الأفكار، ويدرك العلاقات بينها، ويحدد أهداف الحديث والعملية العقلية اللازمة لهذا المستوى هي التفكير الاستقرائي .

د ـ مستوى التطبيق:

عند هذا المستوى يحاول المستمع أن يستخلص من المسموع كل ما يريد الاحتفاظ به من أفكار جديدة، وخبرات جديدة، وألفاظ وتراكيب لم يكن يعرفها، وأساليب أداء يريد أن يتمثلها والعملية العقلية اللازمة لهذا المستوى هي التفكير الاستنباطي والتفكير الاستقرائي .

وبانتهاء الخطوة الثالثة تكون عملية الاستماع قد اكتملت، ويكون المستمع قد تمكن من فهم الرسالة، وتحليل مضمونها .

وهذه الخطوات الثلاث على كثرة ما تتضمنه من عمليات فسيولوجية وعقلية تحدث بالترتيب نفسه الذي وَرَدت به في زمن قياسي بالنسبة لهذه العمليات الكثيرة؛ حيث إن زمن حدوث هذه الخطوات كاملة هو تلك المدة الزمنية بين حديث المتحدث، واستجابة المستمع؛ لأن المستمع لا يستجيب إلى الرسالة ويتحول من موضع الاستقبال إلي موضع الإرسال إلا إذا استقبل، وميز، وفهم مضمون الرسالة التي أرسلت إليه .

وما يحدث في اتصالاتنا الشفوية من تأخر المستمع في الاستجابة، أو تردده في الرد علي أحد محدثيه، أو جنوحه في استجابته عن موضوع الحديث، كل هذا معناه أن الخطوة الثالثة إما أنها مازالت تحدث، وأن العقل ينتظر

انتهاءها ليأخذ قراره، وإما أنها حدثت، ولكن هناك أخطاء في عمليات التحليل والتركيب، فجاءت استجابة المستمع منحرفة عن موضوع الحديث، وهذا الخطأ إما أن يكون مرجعه عله في حاسة السمع أدت إلي حذف بعض عناصر الرسالة المستقبلة، أو خطأ في عملية التمييز السمعي أدى إلي الخلط بين مفهومين، أو رمزين أو أكثر أو قد يكون مرجعه انصراف المستمع عن المتحدث، وبذلك يفقد جزءا من الرسالة .

وهذه المدة الزمنية بين حديث المتحدث واستجابة المستمع، أي المدة التي يحدث فيها الاستماع بخطواته الثلاث، هذه المدة قد تطول، وقد تقصر، فهناك من يستجيب لحديثك عقب آخر صوت في حديثك، وكأنه كان يعرف موضوع حديثك من قبل، وأعد الرد عليه فأصبح جاهزًا، وهناك من يتروى قليلا ثم يستجيب، وهناك من يستغرق في التفكير في حديثك إلي أن تُنبهه إلي أنه يجب أن يتكلم ليحسم الأمر، وهناك من يستوضحك بعض الأمور في حديثك بعد أن تكون قد انتهيت وهناك من يؤثر السلامة ويستمهلك مدة قبل أن يستجيب قائلا: دعني أفكر.

وليس في قصر هذه المدة ميزة، ولا في طولها عيب، إنما العبرة بما يحدث فيها من عمليات التمييز والتحليل والتركيب، والتى تكشف عنها استجابة المستمع فيما بعد، أما طولها وقصرها فمرجعه إلي ما بين الناس من فروق فردية في القدرات والاستعدادات والمهارات .

ويحدث الاستماع ــ علي نحو ما تقدم ــ بخطوتيه: الأولي، والثانية في كل مواقف الاستماع ، ولكن ما يحدث في هذه الخطوة الثالثة يختلف وفق نوع الاستماع والغرض منه، وفيما يلي توضيح ذلك .

ثالثًا : أنواع الاستماع :

تحدث عملية الاستماع في حياتنا اليومية بصفة مستمرة، وبصورة مختلفة، ولأغراض متنوعة، فالاستماع إنما يحدث لغرض معين، يحدده المستمع، هذا الغرض هو الذي يحدد طبيعتها، ومن ثمَّ تتعدد أنواع الاستماع تبعا لتعدد أغراضه، بيد أنه يمكن تصنيفها على النحو التالي :-

١- الاستماع المميز :

قد نستمع في حياتنا اليومية إلي أصوات كثيرة نميزها، ولكنا لا نوغل في تفسيرها وتحليلها، أوالحكم عليها، فنحن نستمع إلي أصوات حيوانات مختلفة نميز بينها، ونرجع كل صوت منها إلي صاحبه، كذلك نميز بين الطيور من أصواتها، كذلك نميز بين أصوات الرجال وأصوات النساء، وأصوات الأطفال ،هذا النوع من الاستماع هو الاستماع المميز، لأن ما يحدث فيه لا يتجاوز عملية التمييز السمعي، والمستمع هنا سلبي تمامًا، وسطحي، إذ لا يقوم بأي محاولة لتحليل المسموع، أو تفسيره، أو تقويمه، وقد يوجه المستمع هنا وعيًا قليلاً لمضمون الأصوات التي يسمعها، ولكنه لا يفي بغرض تفسيرها، وتحليلها أو محاولة فهمها .

٢- الاستماع الهامشي :

أحيانا يستمع الإنسان إلي متحدث ما، ولكنه لايقصد الاهتمام بموضوع الحديث، وربما لأن الموضوع قد لا يعنيه، وربما لانشغاله بعمل آخر، وفي هذه الحالة يتتبع أجزاء مما يقال، ويهمل أخري، وقد يفقد الفكرة الرئيسة، ويتتبع بعض التفصيلات، أو قد يستمع الإنسان إلي موضوع معين، ولكنه لا ينشغل كثيرا بالأفكار الواردة فيه، ولا يوليها اهتمامًا، وهذا النوع من الاستماع يسمى

بالاستماع الهامشي، وهو نوع من الاستماع قد يحدث بدون جهد، أو بجهد قليل من المستمع؛ حيث يحدث على نحو متقطع، أو بنصف وعي، ولا يكون لدى المستمع هنا أي نوع من الاستجابات إلى المسموع .

٣ ـ الاستماع المركز :

في المناقشات، والندوات، والاجتماعات الرسمية، وغير الرسمية تكون عناية المستمع مركزه؛ لتحديد تنظيم المادة المسموعة، وفهم الفكرة الرئيسة، وتحديد البيانات المدعمة لها، بل ويحاول تجميع نقاط معينة مما يستمع له، ويتابع المتحدث باحثًا عن إشارة، أو فرصة تسمح له بالتحدث وإبداء الرأي، وهذا النوع من الاستماع المركز، وغالبا ما يكون الاستماع هنا مرتبطا بغرض لدي من يستمع مما يجعله في حالة انتباه دائمة للحديث والمتحدث .

٤ ـ الاستماع لجلب المعلومات :

في هذا النوع من الاستماع يسعى المستمع إلى الحصول على أفكار ومعلومات، يحاول التزود بتفاصيل معينة، وفيه ـ أيضا ـ يستجيب المستمع استجابة كاملة لتفصيلات المادة المسموعة، وتتابعها، وتنظيمها، ويتابع تسلسل التوجيهات اللفظية المعطاة، ويميز الأمثلة التوضيحية التي يقدمها المتحدث، وهذا النوع من الاستماع يحدث عندما يستمع الإنسان لمحاضرة في مجال تخصصه، أو يتابع الاستماع إلي أحد الأشرطة المسجل عليها مادة علمية يبغي تحصليها، أو يستمع إلي أحدى الخطب السياسية أو الاجتماعية أو الدينية، وفي مثل هذه المواقف تكون عناية المستمع مركزة على تحصيل المعلومات التي يقدمها المتحدث .

٥ ـ الاستماع الناقد :

في هذا النوع من الاستماع يقصد المستمع إلي ما وراء الحقائق، وذلك من خلال تحليل الكلمات، والتفكير فيما تحمله من أفكار، والاستعانة بالمكونات غير اللفظية للاتصال الشفهي، وفيه يحلل المستمع غرض المتكلم؛ حيث يميز التحيزات، ويكتشف العاطفة، ومواطن المبالغة والإثارة، ويميز بين الحقيقة والخيال والاعتقاد ويحدد وجهة نظر المتكلم .

وفي الاستماع الناقد، يحلل المستمع المعلومات ويركبها، ويحدد الأفكار الرئيسية والفرعية في الرسالة المسموعة، ويحدد العلاقات بين الأفكار، ويستخدم قرائن السياق؛ لتحديد المعاني غير المعروفة، ويميز ما هو وثيق الصلة بالموضوع من غيره، وينظم الأفكار ويرتبها .

وفضلا عن كون الاستماع الناقد عملية تحليلية، فهو أيضا عملية تسمى إلى إصدار حكم، ويحدث ذلك عندما يميز المستمع بين (الصواب والخطأ)، و(الحسن والسيء) و(النافع والضار)، من بين الحقائق والأفكار والطريقة التي عرضت بها، ويتضمن هذا النوع من الاستماع الحكم علي أهمية موضوع ما، أو عدم أهميته ، والحكم علي نجاح المرسل في تبليغ الرسالة، أو إخفاقه، وتكوين الانطباعات عنه .

ويعتمد هذا النوع من الاستماع علي جهد المستمع في عمليات التحليل والاستنتاج والموازنة ومدى انتباهه للمتحدث، وسيطرته علي جميع عناصر الرسالة اللغوية التي هو بصدد استقبالها، وغالبا ما نمارس هذا النوع من أنواع الاستماع عندما نعني بدراسة الرسالة اللغوية المنطوقة، كأن تكون عملاً أدبيًا، أو خطبة سياسية أو اجتماعية. بل إننا كثيرًا ما نمارس الاستماع الناقد مع الخطب التي تلقى في الندوات والتجمعات التي تعقد للمرشحين للانتخابات،

ومع الأحاديث الحزبية أو المذهبية التي يلقيها أناس يروجون لأفكار حزبية أو مذهبية غير التي نؤمن بها سواء أكانت أفكارا عقائدية أم سياسية، أم اجتماعية أم فلسفية .

وفي الاستماع الناقد يحاول المستمع دائما أن يلم بأدق تفاصيل الرسالة المستقبلة، ويعني عناية فائقة بكل عناصرها، ويحاول ـ قدر استطاعته ـ أن يحصل أكبر كم من المعلومات التي يتضمنها محتوي الرسالة ، ويفحصها فحصًا دقيقًا، حتى يتمكن من إصدار الحكم .

يتضح مما تقدم: ـ أن نوع الاستماع يرتبط بالغرض منه، وأن كل نوع مما تقدم يرتبط بحالات معينة من النشاط العقلي للمستمع، وبحالات مزاجية، ونفسية معينة، فليس من يستمع ليتذوق كمن يستمع لينقد، أو يجلب معلومات، إذ لكل حالته المزاجية والنفسية الخاصة . هذا فضلا عن أن النشاط العقلي لكل منها ، وأن كان يتفق في بعض العمليات فإنه يختلف في نوع الأداء .

ولعل تعدد أنواع الاستماع وأغراضه يعكس أهميته في حياة الإنسان، منذ طفولته حتى شيخوخته؛ ولذا فإنه يمكن تناول أهمية الاستماع في النقاط التالية:

رابعًا : أهمية الاستماع :

ليس عبثًا أن جعل الله للإنسان أذنين ولسانًا واحدًا، إن في ذلك إشارة واضحة إلي أن الإنسان ينبغي أن يكون مستمعًا أكثر من كونه متكلما، بل إن فى ذلك ما يشير إلى أن كلام الإنسان ينبغى أن يكون نصف استماعه، وليس في ذلك دعوة إلي الصمت الدائم والسلبية التي تفقد الإنسان هويته، وإنما هي دعوة إلي التأمل والتدبر وإعمال العقل في كل ما نسمعه، لنفهمه، ونفيد منه، فإذا تحدثنا جاء حديثنا واضحًا معبرًا، خاليًا من الحشو والتكرار .

ومن ناحية أخري تتجلي حكمة الخالق من ذلك في أنه – سبحانه وتعالي – إنما أراد بالإنسان خيرًا، إذ هيأه ؛ لأن يكون مستمعا أكثر منه متحدثا، ففي الاستماع دائما تتحقق الفائدة للمستمع؛ حيث يتعرف على أفكار جديدة، ومعلومات جديدة، وخبرات قد تضيف إلي خبراته، أو توضحها، أو تعدلها، وقد يكتسب مفردات جديدة وأساليب جديدة للأداء والتعبير، وأبسط فوائد الاستماع – إذا لم يحقق المستمع شيئا من هذا – أنه يجنبه سقطات اللسان .

أما في التحدث فما أكثر سقطات اللسان، وإن أصاب المتحدث فقد ينوء بتحمل مسئولية الكلمة، ومن ثمَّ يوقع نفسه في التنافس بين ما يقول، وما يفعل ،وفي ذلك إثم عظيم وصدق الحق تبارك وتعالي إذ يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ الصف ٢ ـ ٣ .

وأما قولهم: (إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) لا يقصد به، (أي السكوت) ،ذلك الصمت الذي يكون فيه الإنسان سلبيًا معزولاً عن مجريات

الحديث، بل إنه الصمت الذي يكون فيه الإنسان مستقبلاً، مميزًا، محللاً، يتأمل ما يستمع له، ويتدبره، ويفيد منه، هنا فقط يكون الصمت من ذهب .

وترجع أهمية الاستماع إلى عدة أمور، أهمها :ـ

دوره التاريخي في نمو الحياة الإنسانية، ونشر الثقافة، قبل ظهور الكتابة، والوقت الذي يمضيه الإنسان في الاستماع طوال حياته هو وقت طويل ومتسع، ويتأكد من خلاله دور الاستماع الخطير في نمو القدرة علي ممارسات بقية فنون اللغة ، وبعض مستحدثات العصر الذي نعيشه التي تعد إضافات جديدة تزيد من أهمية دور الاستماع في حياة الإنسان .وربما تحتاج الفقرة السابقة إلي بعض التفصيلات التي نوضحها فيما يلي:ـ

أما عن دور الاستماع في نمو الحياة الإنسانية ونشر الثقافة، فقد كان عبء نشر الثقافة، ونقل خبرات الجيل السابق إلى الجيل اللاحق على عاتق الاستماع قبل ظهور الكتابة، إذ لم يكن أمام الإنسان القديم من سبيل إلي الإفادة من خبرات المتقدمين عليه ومعاصريه إلا الاستماع لهم .

وفي تاريخنا العربي الإسلامي ما يوضح دور الاستماع في نقل الثقافة العربية فما نتدارسه اليوم من أدب جاهلي وغيره إنما نقل إلينا عبر الأسماع من خلال الرواية. بل ما وصلنا من أحاديث الرسول (ﷺ) إنما كان للاستماع دور عظيم في نقلها ونشرها عن طريق من سمعها من أصحاب رسول الله (ﷺ)، ثم التابعين وتابعيهم، إلي أن جمعت ودونت بعد ذلك.

بل إن القرآن الكريم ذاته كان للاستماع دوره العظيم في تلقيه، وحفظه، ونشره علي ألسنة حفظته إلى أن جمع للمرة الأولي في خلافة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وما يزال دور الاستماع في حفظ القرآن الكريم ـ حتى اليوم،وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ له أهميته وخطورته، إذ لا بديل

للاستماع في ذلك ـ بل إن من علوم القرآن ما لا يفيد في دراسته وتعلمه إلا الاستماع، وهو علم التجويد، وفضلا عن ذلك، فقد كان الاستماع هو وسيلة راغبي التعليم والدراسة من طلاب العلم .... قبل ظهور الطباعة؛ حيث كان الطالب منهم يقطع الأميال سفرًا إلي حيث يقيم أحد أساتذة العلم الذي يريد أن يتعلمه، فيجلس في مجلسه، ويتلقى عنه علومه ومعارفه .

أما عن الوقت الذي يمضيه الإنسان في الاستماع، فإن الإنسان يولد مستمعا، ويظل معتمدًا اعتمادًا كليًا على الاستماع في اكتساب خبراته اللغوية، يدخل المدرسة فيمضي أكثر من نصف اليوم المدرسي في الاستماع؛ حيث يكون الاستماع بالنسبة له أحد الوسائل الرئيسة للتعلم داخل المدرسة وخارجها، ويخرج الطفل من المدرسة فيمضي نصف اليوم الباقي في الاستماع إلي الكبار من حوله، والمذياع، والتلفاز، وفي دراسة رائدة أجراها (رانكين) وجد أن ٤٥% من الاتصالات اللغوية يمضيها الفرد في الاستماع، أي أن ما يقرب من نصف النشاط اللغوي الذي يمارسه الفرد في حياته اليومية، يقضيه في الاستماع .

ومن ثمَّ فلسنا مبالغين إذا قلنا: إن الإنسان يمضي نصف عمره مستمعا هذا إذا أخذنا في الاعتبار فقط تلك المواقف التي يمارس فيها الاستماع بإرادته لغرض حدده، أما لو أخذنا في الاعتبار تلك المواقف التي يستمع فيها الإنسان بغير إرادته لاختلف الأمر، وارتفعت نسبة الاستماع إلي أكثر من النصف، وفي عصرنا هذا تتسع المساحة الزمنية للاستماع فتشمل معظم اليوم كله تقريبا، فالإنسان يستمع في بيته، وهو يأكل وهو يشرب وهو علي مكتبه، وهو يتهيأ للنوم، وبعد أن يستيقظ من نومه، ثم يستمع وهو في الشارع، في طريقه إلي عمله، وفي السوق، وفي وسائل المواصلات، ثم يستمع في عمله، وفي رحلاته، ودرجة الانتباه التي يوليها المستمع لهذه المادة، والمواقف التي يتعمد فيها

استقبال الرسالة الصوتية، وتحليل عناصرها .

أما عن دور الاستماع في نمو القدرة على ممارسة بقية الفنون، فإن ذلك يقتضي العودة إلي الطفولة الإنسانية، فالطفل يستمع إلى اللغة فترة طويلة قبل أن يتكلم، والخلفية التي تتكون لديه من خبرته فى الاستماع للرموز اللغوية الشفوية، والربط بينها وبين موضوع ما وحدوث الاستماع عملية ضرورية للطفل، ليتعلم الكلام، والقراءة، والكتابة؛ حيث إن أول احتكاك للطفل باللغة يأتي من خلال الاستماع .

ومن خلال الاستماع تتكون لدى الطفل ثروة من مفردات اللغة تساعده علي التحدث، والقراءة، والكتابة، والطفل في نشأته اللغوية يكون أقدر علي الاستفادة من الاستماع من أي نشاط لغوي آخر .

وقد أشرنا في موضوع سابق إلي أن الطفل الأصم لا يستطيع أن يتعامل باللغة؛ لأنه فقد القدرة علي الاستماع فعجز عن ممارسة بقية الفنون، ولاعجب في ذلك فالاستماع هو المدخل الطبيعي لكل فنون اللغة، والمستمع الجيد متحدث جيد، وقارئ جيد، وكاتب جيد .

وفي العصر الحديث، استحدثت أمور جعلت للاستماع دورًا أكثر أهمية في حياة الإنسان، فمن أهم ملامح عصرنا هذا، ذلك التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل في وسائل الاتصال، والانفجار المعرفي، والسكاني، فقد أدى التقدم في وسائل الاتصال إلى تزايد كم المعلومات، وانتشار المواد السمعية بصورة مذهلة وأصبح سوق الاستماع مكتظا بالغث والثمين من الموارد، وهذا يفرض علي المستمع أن يجيد الاستماع، والتمييز، والتحليل، والتركيب، والنقد لما يستمع له، حتى يتمكن من الاختيار السليم للمواد المسموعة أيا كان نوعها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإنسان في هذا العصر يجب أن يوسع دائرة استماعه؛ ليتمكن من ملاحقة ما يبث من معلومات وأفكار، ومعارف من مصادر

متنوعة عن طريق الإرسال الإذاعي أو التلفازي، أو عن طريق أشرطة التسجيل، حتى يتابع الأحداث الجارية من ناحية، ويتعرف علي ما تتضمنه من أفكار ومعارف دينية كانت، أو سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، وينتقي ما يفيده منها من ناحية أخرى. ولما كان من أبرز ملامح هذا العصر ما يسمى بالانفجار المعرفي؛ حيث أصبحت المعرفة خارج نطاق دائرة تحكم الإنسان، أصبح من العسير علي الإنسان أن يلم بكل شيء حتى في مجال تخصصه عن طريق القراءة، ومن ثمَّ فحاجة الإنسان إلي الاستماع ملحة، ليحصل عن طريقه ما لم يستطع تحصيله عن طريق القراءة .

ولعل من أبرز ما يشير إلي أهمية الاستماع، تلك الزيادة الواضحة في جمهور المستمعين، الناتجة عن الزيادة المتفجرة في أعداد السكان، الأمر الذي جعل العناية بإعداد المواد المسموعة هم فئة من الناس، وشغلها الشاغل، وهم أولئك القائمون على إعداد المادة التي تبث من خلال الإذاعة والتلفاز، بل وأصبح المستمع نفسه مشاركًا بقدر ما في ذلك، وقد أدت تلك الزيادة في جمهور المستمعين إلى تسابق العديد من الإذاعات وشبكات الإرسال وغيرها في جذب عدد أكبر من المستمعين، فأخذت تقدم أشكالاً وألوانًا مختلفة من المواد المسموعة، مما يجعل العناية بالاستماع، والقدرة علي تحليل المادة المسموعة ونقدها أمورًا مهمة، وضرورية لكل مستمع كي يحسن اختيار ما يستمع له .

وتزداد أهمية الاستماع عندما نعلم أنه أساس مهم في تلقي علوم الدين، وفهم منهجه، وهذا ما نعرض له فيما يلى .

خامسا: الاستماع وتلقي علوم الدين :

سبق الإشارة إلي الأهمية الدينية للاستماع، وأن علوما دينية يقوم تعلمها علي الاستماع، وأن الأدب النبوي أكد علي جزاء الاستماع لآيات الذكر الحكيم.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن تلقي علوم الدين يقوم في جزء كبير على الاستماع أولاً، بل إن القرآن الكريم ذاته لا يكون تعلمه صحيحا، إلا من خلال محاكاة المنطوق عن طريق الاستماع .

ونستطيع أن نقول: إن منهج الصحابة مع القرآن الكريم كما علمهم النبي (ﷺ) يبدأ بالاستماع علي النحو التالي : ـ

١ ـ الاستماع . ٢ ـ ثم الفهم لما يسمع .

٣ ـ الحفظ لما يفهم . ٤ ـ يتبع ذلك بالعمل والإخلاص فيه .

وقد سجلت السنة المطهرة لأصحاب النبي (ﷺ) كل هذا. فهم إذا جلسوا إلى النبى (ﷺ) فكأن على رؤوسهم الطير؛ اذانهم تسمع، وقلوبهم تخشع إلي ذكر الله وما نزل من الحق .

والمجلس النبوي الذي كان يشهد بآيات الله ووحيه كان علي أعلي مستوي للبيئة العلمية، فهو مجلس لا تسمع فيه همسا، إذا علا صوت النبي (ﷺ) .

وقد تولي الله عز وجل تأديب الصحابة بأدب الاستماع الجيد حين قال لهم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ الحجرات٢ .

فالجالسون في مجلس النبي (ﷺ) مستمعون أفسحت ألسنتهم المجال لآذانهم، كي تتحقق من السماع، إلا في سؤال يوجه، أو استزاده تطلب، أو مراجعة في أدب، يوضح هذا المعنى أيضًا حديث النبي (ﷺ) الذي يلقي فيه أدب الإنصات حين التلقي الجماعي فيقول: (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة، والإمام يخطب: (أنصت) فقد لغوت رواه الجماعة إلا ابن ماجة . فالجو كان مهيئًا للاستماع الحسن الذي يتبعه الفهم ثم الحفظ، وذلك بتعهد ما سمع وفهمه، فعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله (ﷺ) قال: " إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت " . فإذا ما حفظوا ترجموا هذا المحفوظ إلى أعمال أي أن القرآن الكريم حفظ في قلوبهم، وحفظ ــ أيضا ــ في سلوكهم.

فعن علي رضي ــ الله عنه ــ قال: كانت السورة إذا نزلت على عهد رسول الله (ﷺ) أوالآية أو أكثر زادت المؤمنين إيمانا وخشوعا ونهتهم فانتهوا".

ولعه من المفيد هنا أن نتأمل في قوله (ﷺ) موضحًا ثواب الاستماع للقرآن الكريم (من استمع إلى آية من آيات الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة) ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل تفصل أحاديث أخرى بعض الجوانب المتعلقة بالمسموع فها هو رسول الله (ﷺ) يطلب من عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ أن يقرأ عليه القرآن، فيتعجب ابن مسعود، ويقول له: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال (ﷺ) : " إني أحب أن أسمعه من غيري " ..... فقرأ عليه سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ قال : حسبك الآن " فالتفت إليه (ﷺ) فإذا عيناه تذرفان .

ومما تقدم يتضح الدور المهم للاستماع في شتى النواحي، ومكانته في ممارستنا اللغوية، ومن ثمَّ فإنه يجب أن يعرف كل من يمارس كيف يكون مستمعًا جيدًا ؟ وهذا ما تعرض له النقطة التالية :ـ

سادسًا: كيف تكون مستمعًا جيدًا ؟

قد يعتقد البعض أن الاستماع عمل يمكن أن يؤديه أثناء انشغاله بأي عمل آخر ،وقد يعتقد البعض أن الاستماع عمل يمارسه للاستماع، وقضاء بعض أوقات الفراغ فقط، وقد يظن بعض الناس أن البراعة كلها، والمهارة بعينها في الكلام، فهو يتحدث بداع وبدون داع لمجرد الكلام؛ ليثبت أنه متحدث لبق، وأحيانا لمحاولة إبراز شخصيته، وفرض آرائه علي مجالسيه والحق أن هذه اعتقادات خاطئة، وظنون لا ترقي بصاحبها إلي ما يصبو إليه؛ لأن الاستماع ـ كما تقدم ـ ليس أمرًا عرضيًا، وليس عملا ترفيهيا فقط، وكثرة الكلام سبيل ممهدة للوقوع في الأخطاء، والخروج على آداب الحوار، فأن يستمع المرء ساعات خير له من أن يتحدث دقائق .

والاستماع فن له طبيعته، وله آدابه التي ينبغي للإنسان أن يتمثلها؛ ليكون مستمعا جيدا، ولكى تكون كذلك عزيزي القارئ، فاقرأ جيدا الفقرات التالية :ـ

حاول أن تجلس هادئا أثناء الاستماع، فالهدوء يهيئ حاسة السمع للاستقبال، ويريح الجهاز العصبي. فتمر الأصوات خلال العصب السمعي إلى المخ واضحة، فتحدث عملية التمييز السمعي بدقة متناهية، والهدوء كذلك بيئة خصبة لعمل العقل في المسموع .

ـ حاول أن تبتعد عن أي مصدر خارجي للتشويش علي الرسالة المستقبلة كالضوضاء، والأصوات المزعجة التي من شأنها أن تؤثر علي مصدر الإرسال ـ سواء أكان شخصا يتحدث، أم جهازا تستقبل من خلاله الرسالة ـ فتصل

الرسالة إلي الأذن إما ناقصة، وإما مختلطة بأصوات من مصدر التشويش، فيصاب المستمع بالإرهاق فيعجز عن متابعة الرسالة .

ـ إذا جلست للاستماع، فتخلص تماما من العوامل الداخلية التي من شأنها أن تكون مصدرًا للتشتت، وهذه العوامل الداخلية تكون في المستمع نفسه، كأن يكون تفكيره مركزا حول موضوع آخر غير موضوع الاستماع، أو تكون حالته النفسية لا تؤهله للاستماع لهذا الموضوع أو ذاك، أو يقع تحت تأثير الشعور بأنه مضطر ومكره علي الاستماع لهذا المتحدث، أو ذاك الموضوع، أو يشعر أنه كان ينبغي أن يمضى هذا الوقت في عمل آخر أكثر نفعًا له، كل هذه أشياء تشتت تفكير المستمع، فتضيع منه الرسالة، أو معظمها .

ـ يجب أن تعرف لماذا تستمع ؟ فبداية كل عمل ناجح تحديد الهدف منه، ولا معني لاستماع بدون هدف واضح، ووعي المستمع بالهدف يساعده علي متابعة المسموع، ويقوده إلي العناصر المهمة فيه، ويبصره بأهم النقاط التي يجب أن يحتفظ بها منه، ويجعله محتفظًا بانتباهه طوال فترة الاستماع .

ـ حاول أن تستمع عندما يكون لديك دافع للاستماع، ورغبة فيه،سواء فيما يتعلق بالمحدث أو بموضوع الحديث؛ حيث إن افتقاد الإنسان للدافع يجعل الاستماع مضيعة للوقت .

ـ ركز انتباهك جيدًا فيما تستمع له حتى لا تفقد جزءا من الرسالة، فيأتي فهمك لها ناقصا، أو تعجز عن متابعة بقية الرسالة .

ـ حاول أن تعتاد النظر إلي المتحدث؛ لتحتفظ بالاتصال البصري بينك وبينه، وحتى تتابع إشاراته، وإيماءاته، وتعبيرات وجهه؛ حيث إن هذه الأمور جميعها تفيد في تفسير الرسالة وفهمها .

ـ تجنب مقاطعة المتحدث، فمقاطعته قد تفسد عليك؛ الاستماع، وتضيع من بين يديك فرصة المتابعة، وقد تربك المتحدث، فتذهب ببعض أفكاره، أو تسبب له ضيقا، أو حرجا، وإن كان لا بد من تدخلك، فاحتفظ بما تريد مناقشته حتى ينتهي المتحدث .

ـ حاول دائما أن تشعر المتحدث بالإقبال عليه؛ لأن الاتصال عمليه اجتماعية قائمة علي التفاعل بين الناس، وهذا التفاعل يستلزم المشاركة، وإذا كنت تشارك المتحدث أفكاره، وآراءه بوصفك مستمعا له، فيجب أن تلتزم بأدب الحوار، فلا تبدو منصرفا عن محدثك، ولا تشعره بأنك في غني عن هذا الحديث، أو توحي إليه بأن ما يتحدث فيه أمور تافهة لا تستحق الالتفات إليها .

ـ حاول أن تدون مذكرات مختصرة حول ما تستمع له، وخصوصا إذا كانت الرسالة طويلة ... حتى تظل محتفظا بالفكرة الرئيسة، والأفكار الفرعية، وتسلسل موضوع الحديث .

ـ حاول أن تستخلص من المادة المسموعة ما يمكن أن يضيف إلي خبراتك أو تفيد به حياتك.

ـ كن موضوعيًا في تفسيرك لما تستمع له، ونقدك إياه، فلا يحملنك شعورك بعدم الارتياح لشخص ما علي تسفيه آرائه، ولا يؤدي بك إعجابك بشخص آخر إلي قبول كل ما يصدر عنه دون تدقيق وتمحيص .

وبعد ..... فتلك أهم ملامح الاستماع بوصفه فنًا لغويًا يمارسه الإنسان، أو ينبغي أن يمارسه بما يعود عليه بالنفع ، ويحقق له الفائدة .

ولنا مع الاستماع وقفة أخري، نتعرف من خلالها علي ما ورد في القرآن الكريم بشأن الاستماع من وحدات لغوية، ودلالات، وهذا ما تتناوله الصفحات التالية .

سابعًا: الاستماع كما عبر عنه القرآن الكريم :

وردت صيغتا " سمع " و" استمع " بتصريفاتهما المختلفة في القرآن الكريم بمعانٍ متنوعة تعود في مجملها إلي الاستماع بوصفة فنا استقباليا، وفيما يلي بيان للمواضع التي وردت فيها كل صيغة والمعاني التي أشارت إليها .

أ ـ صيغة استمع :

استمع " افتعل " لوزن افتعل في اللغة العربية معانٍ متعددة، من بينها، المطاوعة، وأداء الفعل باجتهاد، ومبالغة، وقد يأتي بمعني تكلف الفعل، أو التظاهر به .

وقد وردت صيغة (استمع) بتصريفاتها في خمسة عشر موضعًا من القرآن الكريم، وتنوعت معاني السياقات التي تضمنتها، بيد أنه يمكن تصنيفها في ضوء ما أشارت إليه من توجيهات علي النحو التالي :ـ

١ ـ وجوب التحلي بآداب الاستماع إلي كلام الله سبحانه وتعالي :

وقد جاءت هذه الآداب ملزمة؛ حيث اقترنت بصيغة الأمر، وما أمر الله به فهو ملزم وقد وردت صيغة الأمر (استمع) في أربعة مواضع من القرآن الكريم جاءت في موضعين منهما مقيدة بموقف معين ، ومستمع محدد، وهما :ـ قوله تعالي: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ طه ١٣ .

وقوله: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ق : ٤١ .

فالمستمع في الآية الأولي هو موسى (عليه السلام) كليم الله، وفي الثانية هو رسولنا الكريم (ﷺ) .

أما الموضعان الآخران،فهما قوله تعالي:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الأعراف : ٢٠٤.

وقوله تعالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ الحج ٧٣.

ويلاحظ في هذه المواضع الأربعة أن الأمر بصيغة (استمع) ينطوي علي بعض المعاني التي يمكن اشتقاقها من الصيغة، والسياقات التي وردت فيها، وهي :ـ

أـ الطاعة، وهذا المعني تشير إليه صيغة الأمر ووزن الفعل، وكونه أمرا إلهيًا يلزم طاعته، والامتثال له.

ب ـ السكون، وذلك من العوامل الفيزيقية التي تساعد علي فهم المسموع، أو تدبر معانية، وقد أشار إليه سياق آية (الأعراف)؛ حيث قال سبحانه (فاستمعوا له وأنصتوا) فالإنصات هنا يعني السكون .

ج ـ الاستجابة لما نستمع له، وذلك ما يشير إليه معنى المطاوعة الذي يوحي به وزن الفعل .

د ـ الاجتهاد في الفهم ، بمعني ألا يكون الإنسان سلبيا، وهو يستمع لخير الكلام وأحسن الحديث (القرآن الكريم)، وهذا المعني متضمن في الوزن الذي جاءت عليه صيغة الأمر (استمع) .

٢ ـ ضرورة تنقية ما نستمع اليه واتباع أحسنه :

وقد أشار إلي ذلك قوله تعالي: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ . الزمر: ١٨.

فالاستماع هنا مطلق؛ لأن المسموع، وهو القول عام وشامل (أل) هنا

لاستغراق الجنس، أي كل قول وأي قول؛ ولذلك قال سبحانه:(فيتبعون أحسنه) فمادام القول بهذه العمومية فإنه بالضرورة فيه الصالح والطالح، ومن ثم وجب علي المسلم أن يتبع أحسن ما يسمع، وتحديد الحسن من غيره عملية قوامها إصدار الحكم، ويعتمد إصدار الحكم علي فهم المسموع وتحليله، ونقده ... وتلك من متضمنات معني الفعل (يستمعون) أي يفهمونه، ويحددون أحسنه، فيتبعوه هذا والله تعالي أعلم .

٣ ـ غاية الاستماع والفهم والاستجابة :ـ

وهذا المعنى يشير إلى أن الاستماع ليس مجرد الاستقبال الحاس للأصوات اللغوية، بل إنه عملية تسعي إلي أبعد من ذلك، إنه لا استماع بدون فهم، ويمكن الاستدلال علي أن الفهم أساس لحدوث الاستماع، من جهتين :ـ

أولا هما: إثبات الفهم لفئة ممن يستمعون وآخرهما: نفيه عن فئة منهم، وهذا يتضح من سياق الآيات التالية :ـ

قوله تعالي:﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ الأحقاف:٢٩.

قوله تعالي: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ الجن :١. فقد أثبت لهؤلاء النفر من الجن فهمهم لما استمعوا لـه، ويشير إلي فهمهم ما أورده القرآن الكريم علي ألسنتهم في الآيات التالية لكل آية من هاتين الآيتين، حيث يقول تعالي في سورة الأحقاف: ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. الأحقاف : ٣٠.

ويقول تعالي في سورة الجن: ﴿ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ . الجن : ١، ٢.

أما قوله تعالي: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ ﴾ الأنعام : ٢. وقوله تعالي: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾يونس: ٤٢.

وقوله تعالي: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ الإسراء : ٤٧.

وقوله تعالي: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ محمد : ١٦.

ففي هذه الآيات تلاحظ ـ معنا أن الفهم قد انتفي عمن يستمعون، وهم الكفار؛ وذلك لأسباب بينتها الآية، فكأنهم لم يستمعوا لشيء، وقد منعوا من الفهم؛ لأن الله سبحانه وتعالي طبع علي قلوبهم، كما أوضحته آية " محمد " وجعل عليها أكنة أن يفقهوه، أي أغطية، كما هو في آية " الأنعام " ووصفهم بأنهم صم لا يعقلون في آية " يونس " .

أما في آية الإسراء " فهم يستمعون بآذانهم فقط وهم أبو سفيان، وأبو جهل، وجماعة من المشركين، وقد كانوا يذهبون إذا ما جن الليل؛ ليستمعوا إلي الرسول الكريم (ﷺ) وهو يتلو القرآن، وكل منهم يحاول جاهدا أن يخفي أمره

عن الآخرين، فلما انكشف أمرهم أمام بعضهم تعاهدوا إلا يعودوا لمثلها، وقد انتفي عنهم الفهم، لأنهم لو فهموه، أي القرآن، وتدبروا معانيه لما قالوا: إن تتبعون إلا رجلا مسحورا، وقد قال سبحانه: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾.

والباء هنا ــ والله أعلم ــ للاستعانة؛ لأن الهاء المجردة بها ضمير عائد علي " ما " المتقدمة، وتشير إلي آلة الاستماع وهي الأذن، أي أن استماعهم لم يجاوز آذانهم .

ومن المواضع التي وردت فيها صيغة الفعل (يستمع) في القرآن الكريم وارتبطت بسياقات ومواقف خاصة :

قوله تعالي:﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

ففي هذه الآية نفي لمجرد محاولة الاستماع، فليس لدي هؤلاء المشركين سبيل أو مرقاة إلي الملأ الأعلى فيستمعون إلي شيء يبررون به عصيانهم وتمردهم، وإلا فليأت من يستمع لهم بحجة ظاهرة على ما هم فيه من الكفر والعناد. وقوله تعالي: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ الجن : ٩.

ففيه يخبر المولي عز وجل عن الجن أن من يحاول منهم أن يسترق السمع للقرآن الكريم فسوف يجد له شهابًا رصدًا له يمحقه ويهلكه ، فقد كانت الشياطين تجلس مجالس قبل نزول القرآن الكريم، فطردت منها حتي لا يسترقوا شيئا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهان .

قوله تعالي: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ الشعراء:٢٥.

ففي هذه الآية إنكار وتوبيخ ساقته الآية الكريمة علي لسان فرعون ــ لعنة الله عليه ــ فهو ينكر على موسي (عليه السلام) قوله لما سأله: " وما رب

العالمين " قال: "رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين " ويوبخ مستمعيه، إذ يستمعون إليه.

ثانيا : صيغة " سمع " :

وردت هذه الصيغة بتصريفاتها في (٩٢) اثنين وتسعين موضعا من القرآن الكريم، وقد جاءت منفية، أي في سياقات تفيد النفي، كما جاءت مثبته في مواضع أخري علي النحو الذي نفصله فيما يلي :ـ

أ ـ الصيغ المنفية :

جاءت الصيغ المنفية للفعل المضارع (يسمع) للدلالة على نفي حدوث السماع، وذلك لعدم وجود ما يسمع، أو لخفوت الأصوات وانخفاضها، أو لصفات نقص في المتلقين، وفيما يلي بيان للأغراض التي من أجلها انتفت صفة السماع :ـ

للإشارة إلي الفناء، وذلك في قوله تعالي:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ مريم : ٩٨.

والسياق هنا استفهام خرج عن ظاهر معناه إلي النفي ، والاستماع هنا ممتنع لامتناع ما يسمع، إذ لاصوت لهم، و" ركزا " بمعني الصوت الخافت الخفي، حتى ذلك غير موجود .

لإظهار الخشوع والسكينة: وذلك في قوله تعالي: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ الغاشية ١٠ـ ١١.

وقوله تعالي: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ طه : ١٠٨.

والصيغة (تسمع)هنا وإن كانت منفية فإنها لم تنف السماع على اطلاقه ، وإنما تنفي سماع اللغو في آية (الغاشية)، وسماع الأصوات المرتفعة في آية (طه) وفي الآيتين إشارة إلي الخشوع والسكينة ، وجلال الموقف .

التوبيخ وذم الكفار لعدم استجابتهم، وذلك في قوله تعالي :ـ

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ الأنفال : ٢٣.

﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ القصص : ٧١.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ النمل : ٨٠. ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ الروم : ٥٢.

﴿أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ الزخرف : ٨٠.

فالاستماع هنا لم يحدث لصفات نقص في هؤلاء المشركين، الذين طبع الله علي قلوبهم، وأصم آذانهم فكأنهم موتى لا يسمعون .

الإعراض : وذلك في قوله تعالي :ـ

﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ الأعراف : ١٠٠.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ الأعراف: ١٧٩.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾. الأعـــــراف: ١٩٨.﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ فاطر : ١٤.

قال تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ لقمان:٧. قال تعالى :﴿يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ الجاثية:٨.

والإعراض هنا هو تجنب سماع آيات الله أو تدبر معانيها .

وقد وردت صيغة الفعل (تسمع) في سياق النص؛ لتشير إلى عدم حدوث الاستماع بسبب إغراض المستمعين (المشركين) عن سماع القرآن الكريم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فصلت : ٢٦.

<u>التحقير</u>: وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ مريم : ٤٢.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ الشعراء ٧١ـ ٧٢.

فانتفاء صفة السمع عن هذه الأصنام تعجيز لها وتحقير لشأنها .

<u>الندم:</u> وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك:١٠.

فهؤلاء هم أصحاب السعير يندمون؛ لأنهم لم يحاولوا أن يسمعوا ما أنزل عليهم من آيات الذكر الحكيم، أو يفهموه .

الإستبعاد: وذلك في قوله تعالي:﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ الصافات: ٧ـ ٨.

وقد نفي حدوث الاستماع في هذه الآية لاستبعاد وصول الشياطين إلي الملأ الأعلى، لاستراق السمع .

الإنكار: وذلك في قوله تعالي: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ المؤمنون : ٢٤.

حيث انتفي السماع لإنكارهم أن يبعث الله بشرا رسولا .

ب ـ الصيغ المثبتة :

وردت الصيغ المثبتة (سمع) بتصريفاتها لإفادة حدوث السماع مع تجدد الحدوث واستمراره، أو تحقيق حدوثه، أو طلب حدوثه، وقد تنوعت السياقات التي وردت بها هذه الصيغة، ومن ثمّ فقد تعددت أغراضها علي النحو التالي :ـ

ـ الإشارة والتوجيه :

ومن ذلك توجيه المؤمنين إلي الابتعاد عن سماع اللغو من الحديث، وتجنب مجالسة. بل وعدم الخوض فيه، ومن ذلك قوله تعالي: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ النساء : ١٤٠.

وقولـه تعـالي: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ النور : ١٢.

ومن ذلك ـ أيضا ـ الإرشاد إلي الاستماع لمـا أمـر الله بـه وفهمـه والامتثال له، ومن ذلك قوله تعـالي :﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ البقرة : ٩٣.

وقولـه تعـالي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ البقرة : ١٠٤.وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ المائدة:١٠٨. وقوله جل شـأنه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ التغابن : ١٦.

ويلاحظ هنا أن الإرشاد والتوجيه اقترن بصيغة الأمر (اسمعوا) ذلـك ـ والله تعالي أعلم ـ لأن الاستماع هنا مرتبط بأوامر الحـق سـبحانه وتعـالي ونواهيه، ومن ثم أصبح أمرا مطلقا، أما في آية النساء، وآيتي النور فالاستماع مرتبط بمواقف محددة وحديث بعينه، ومن ثم فقد بين الحق سبحانه لعباده مـا يجب عليهم أن يفعلوا في مثل هذه المواقف .

ومن الإرشاد والتوجيه أيضا قوله تعالي:﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ الأنفال : ٢٠.

حيث يوجه الله سبحانه عباده المؤمنين إلي طاعته وطاعة رسوله مـادامـوا يسمعون ما أنزل الله وما قاله الرسول (ﷺ).

- الحث على الاستماع والتدبر :

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ يس : ٢٥.

فهو يحثهم على سماع قوله وتدبره؛ ليؤمنوا بما آمن به، وواضح أن الأمر ليس مجرد سماع أصوات، بل هو الفهم والتدبر والاستجابة .

التحذير من عاقبة تبديل ما أمر الله به وما أنزله :

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة : ١٨١. (بعد ما سمعه) أي بعد أن تلقاه استماعا فأعلم به؛ وذلك لأن تلقي علوم الدين في سني الإسلام الأولى كان يعتمد اعتمادًا كبيرًا على الاستماع .

الإعلام :

وهو إفادة المتلقي بخبر للعلم بمضمونه، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ .

آل عمران : ١٨١.

وقوله:﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ ﴾ التوبة: ٦

وقوله: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ طه : ٤٦.

وقوله سبحانه: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ المجادلة : ١. ففي آية التوبة، المقصود بها، أجره حتى يسمع كلام الله، فيكون قد أعلم به. ومن ذلك الإعلام قوله سبحانه: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ آل عمران : ١٨٦.

وقوله:﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ يوسف : ٣١.

التعجب :

وذلك في قوله تعالى:﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف : ٢٦.

والتعجب هنا لبيان قدرة الله سبحانه وتعالي فما أسمعه !! ـــ إنه هو السميع . وفي قوله تعالي: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ مريم : ٣٨.

والتعجب هنا لبيان موقف الكفار يوم القيامة، إذ يكونون أسمع شيء وأبصره، أي ما أسمعهم، وأبصرهم يوم القيامة على الرغم من أنهم (اليوم) في الدنيا لا يسمعون ولا يبصرون .

التعريض :

وذلك في قوله تعالي:﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ النمل : ٨١ ، والروم : ٥٣.

وهذا تعريض بهؤلاء المشركين الذين لا يسمعون ولا يعتبرون .

وفي قوله تعالي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يونس : ٦٧.

ففي ذلك تعريض بهم إذ لا يسمعون ولا يعقلون آيات الله .

العناد و المكابرة :

وذلك في قوله تعالي: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله تعالي:﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة : ٩٣.

وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأنفال : ٣١.

وهذه الآيات الكريمة تتحدث عن الكفار وعنادهم، فهم يحرفون كلام الله بعدما سمعوه وعقلوه، ويصرون على العصيان بقولهم سمعنا وعصينا في آية البقرة، ثم يزاد في طغيانهم وعنادهم بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا في آية الأنفال ومن ذلك أيضا قوله تعالي: ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾. فهم يصرون علي قولهم سمعنا وعصينا، بل ويسبون الرسول صلي الله عليه وسلم بقولهم اسمع غير مسمع .

الترهيب :

وذلك في قوله تعالي: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ . الفرقان : ١٢.

وقوله تعالي: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ الملك : ٧.

وفي ذلك ترهيب من النار لمن أراد أن يعتبر فأهلها يعذبون بالسماع قبل الخلود

في العذاب، ولا شك أن للفعل "سمع" في الآيتين دلالة عميقة على هول الموقف، ورهبته فهم يسمعون تغيظها وزفيرها من مكان بعيد، وفي ذلك عذاب بالرعب الذي تبعثه هذه الأصوات المفزعة في نفوسهم، والتوتر الناتج عن علمهم بأنهم يساقون إلى هذه الأصوات، وبما تهيئه لهم تصوراتهم الذهنية لما وراء هذه الأصوات المضطرمة من اضطراب وهلع، وبما يعبث بأوهامهم الضالة متوهمة بالنجاة بما يساقون إليه .

حتى إذا أُلقوا فيها تبددت أوهامهم، وبلغ بهم الرعب أقصاه، والاضطراب غايته، والهلع شدته، وأصبح عذاب الحريق قرينًا لعذاب السمع، وحرقت النار أجسادهم كما يحرق السمع أرواحهم .

التحسر :

وذلك في قوله تعالي: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ .

فهم يتحسرون علي أنهم لم يسمعوا كلام الله في الدنيا، ولم يبصروا آياته فيعتبروا ويتمنون أن لو أُرجعوا إلي الدنيا ليعملوا الصالحات، وذلك بعد أن عاينوا الثواب والعقاب .

الاستجابة لأوامر الله :

وذلك في قوله تعالي:﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾ آل عمران : ١٩٣.

وقوله تعالي: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ المائدة : ٨٣.

وقوله جل شأنه: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ الجن:١٣.

وقد قرنت الطاعة، والإيمان، وفيضان الدموع كل ذلك بالسماع؛ لأنها استجابات له .

التأمل والاتعاظ :

وذلك في قوله تعالي:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الحج : ٤٦. أي يسمعون بآذانهم ويعقلون ما يسمعونه ويرونه، فتلين قلوبهم، ويتعظون بآيات الله في أرضه .

وقد وردت صيغة الفعل " تسمع في قوله تعالي: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ المنافقون:٤.

وهي هنا علي سبيل الحكاية عن هؤلاء المنافقين الذين يشققون الكلام ويحسنون ترتيبه، ليحجبوا حقيقة ما بداخلهم ، فيجتذبوا الأسماع إليهم .

الصيغ الاسمية :

وردت الصيغ الاسمية لمادة " سمع " في (٧٧) موضعًا من القرآن الكريم، وقد تنوعت في الضمير، واسم الفاعل، والصفة المشبهة، وصيغة المبالغة، وفيما يلي تفصيل ذلك :ـ

١ ـ السمع :

وردت كلمة السمع " في (١٢) موضعًا، مشيرة في بعضها إلي الحاسة، وفي بعضها الآخر إلى النشاط الذي يقوم به المستمع،بمعني أنها آلة السماع، والعملية نفسها ـ كما سنوضحه فيما يلي :ـ

أ ـ آلة السماع :

آلة السماع: الأذن، وفي المعاجم، السمع: الأذن والجمع أسماع، وأذن له: استمع .

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا وما أذنوا من صالح دفن وا صم

إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

ومنه ـ أيضا ـ قولهم: " رجل أذن "، أي يسمع مقال كل من قال .

والأذن إحدي النعم الجليلة التي أنعم الله بها على الإنسان، فهو بها منتج مستقبل، أي كائن متفاعل، وبدونها فهو منتج فقط، ولك أن تتصور جهاز (تليفون) يرسل ولا يستقبل ، وكيف يمكنك استخدامه ؟.

وقد سخر الله الأذن ـ وسائر الحواس للإنسان ـ فهي لا تسمع إلا ما أراد لها أن تسمع، ومن ثمَّ فهي شاهدة عليه يوم القيامة .

وقد جاءت كلمة (السمع) مشيرة إلى الأذن وقد ورد هذا المعني في :ـ

ـ قوله تعالي: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ ﴾.وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ البقرة : ٢٠ .

ـ وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ ۗ ﴾ الأنعام : ٤٦

ـ وقوله سبحانه:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾. يونس : ٣١ .

ـ وقوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ـ وقوله:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ .

ـ وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ ﴾. المؤمنون : ٧٨.

ـ وقولـه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ ﴾ السجدة: ٩

ـ وقوله:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم ﴾فصلت ٢٠.

ـ وقوله:﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾فصلت ٢٢.

ـ وقولـه:﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾. وقوله تعـالى:﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ ﴾ الملك : ٢٣.

<u>ب ـ عملية الاستماع :</u>

وظيفة الأذن السمع، والسمع ـ كما تذكر المعاجم ـ مصدر سمع يسمع، فيقال سماعًا، ومسمعًا .

والـ " سمع " هنا يشير إلى ذلك النشاط المتضمن في عملية الاستماع، وقد ورد هذا المعنى في :

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ هود : ٢٠.

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ الحجر : ١٨.

وقوله : ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ الكهف : ١٠١.

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ الشعراء : ٢١٢.

وقوله : ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ الشعراء : ٢٢٣.

وقولـــه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق٣٧ . وقوله : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ الجن : ٩.

٢ــ السميع :

السميع صفة مشبهة، والصفة المشبهة في العربية تدل علـــى وصـــف الموصوف بها على سبيل الدوام والثبوت، بمعني أن " السميع " وهي صفة الله سبحانه وتعالي تدل على ثبوت الصفة لذاته العلية مع دوامها، وقد وصـــف الله نفسه بهذه في المواضع التالية من كتابه الكريم :ــ

يقول سبحانه: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ البقرة : ١٢٧.

وقوله: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ البقرة : ١٣٧.

وقوله: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة : ٢٢٧.

وقوله: ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ آل عمران : ٣٥.

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾آل عمران:٣٨

وقوله:﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ النساء : ٥٨.

وقوله: ﴿ فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ النساء: ١٣٤

وقوله: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ النساء : ١٤٨ .

وقوله : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الأنعام : ١٣.

وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الأنفال : ٦١.

وقوله: ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ التوبة : ١٠٣ .

وقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ هود : ٢٤.

وقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ إبراهيم : ٣٩.

وقوله: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الإسراء : ١.

وقوله:﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الأنبياء :.

وقوله: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ سبا : ٥٠.

وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الدخان : ٦.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الحجرات : ٦.

وقوله:﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.

٣ــ سمّاع :

سماع : فعال، وهي صيغة مبالغة تشير إلى كثرة حدوث الفعل، أي أنها هنا تدل علي كثرة حدوث السماع، وقد وردت بهذا المعني في المواضع التالية :

قوله تعالي :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ ﴾ المائدة ٤١.

وقوله تعالي:﴿ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ المائدة ٤٢.

وقوله تعالي:﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ التوبة : ٤٧.

٤ ــ وقد وردت صيغة اسم المفعول في موضع واحد من القرآن الكريم وهو قوله تعالي: ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ ﴾ النساء : ٤٦.

وقد سبق الإشارة إليه .

٥ــ أما صيغة اسم الفاعل " مستمع " فقد وردت في موضعين سبق الإشارة إلي أحدهما، وهو قوله تعالي: ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ الطور : ٣٨.

أما الموضع الآخر: ففي قوله سبحانه: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ الشعراء : ١٥.

وبعد :

يلاحظ مما تقدم أن الصيغ المعبرة عن الاستماع، والتي وردت في القرآن الكريم جاءت كثيرة ، ومتنوعة، ومتعددة الدلالات .

أما كثرتها فإشارة واضحة إلى أهمية الاستماع إلي القرآن الكريم بصفة خاصة، والاستماع بصفة عامة، فلو لم تكن قضية الاستماع مهمة في حياة الإنسان، لما وردت في القرآن الكريم، بهذه الكثرة، وقد أشرنا فيما تقدم إلى أهمية الاستماع .

أما تنوع هذه الصيغ، فهو إما دليل علي تجدد حدوث الاستماع، أو تنوع زمن الحدوث، أو اختلاف درجاته، أو تنوع فاعليه، وفي ذلك إشارة إلي أن الاستماع عملية مستمرة في حياة الإنسان، تتفاوت وفقا لقدرات المستمع أو موضوع الاستماع .

أما تعدد دلالاتها فيشير إلى تنوع الظروف والمواقف التي يمارس فيها الاستماع .

ومن خلال استعراضنا لما ورد في القرآن الكريم بشأن الاستماع يمكن استنباط ما يلي :ــ

١ــ أن الأمر بالاستماع في القرآن الكريم اقترن بالدعوة إلي تدبر كلام الله، وفهم تعاليم الدين الحنيف، وقد نهى الله عن سماع اللغو والجلوس في مجالسه،

وأرشد عباده إلي التدبر والتفكر فيما يستمعون له .

٢ــ أن الاستماع الحق يستلزم الفهم والاستجابة لما أمر الله به، والابتعاد عما نهي الله عنه؛ ذلك لأن المرء إذا سمع ولم يتدبر فكأنه عطل ما وهبه الله من نعمة العقل، ومن ثمَّ فهو آثم لتعطيله هذه النعمة الجليلة، ولعدم امتثاله لأوامر الله ونواهيه نتيجة هذا التعطيل .

أما إذا استمع المرء وفهم، ولم يستجب فقد أدخل نفسه في زمرة العصاة الكافرين .

٣ــ أن من صم أذنه في الدنيا عن الاستماع والتدبر سوف يكون أسمع " يوم القيامة، ويومئذ لن يصيبه من استماعه إلا الحسرة والندم، والخوف والفزع مما يسمعه من تغيظ جهنم وزفيرها .

٤ــ أن للاستماع آدابًا يجب أن نلتزم بها، وخاصة إذا كان ما يسمع هو كلام الحق سبحانه .

ولعل ما عرضنا له ــ فيما سبق ــ من تأصيل نظري للاستماع، وما يتعلق به،ومن تناول الاستماع في القرآن الكريم، يقودنا إلي الفن اللغوي الثاني وهو التحدث، وهذا ما يعرض له الفصل الثاني .

الفصل الثاني

١ ـ مقـــــدمـــــــــة .
٢ ـ مفهوم التحـــــــــدث .
٣ ـ كيف نتحـــــــــدث ؟
٤ ـ لمـاذا نتحـــــــــدث ؟
٥ ـ أهميـة التحـــــــــدث .
٦ ـ مزالق التحـــــــــدث .
٧ ـ كيف تكون متحدثا جيـدا ؟
٨ ـ التحدث في القرآن الكريم .

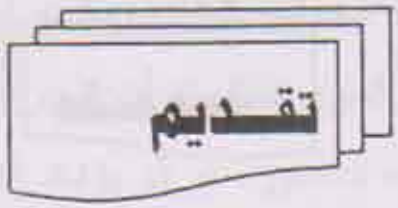

تقـــديم

يعرض هذا الفصل للتحدث بوصفه الفن اللغوي الثاني، وأحد نظم إنتـــاج اللغة، والتعبير بها، فيبدأ بتحديد مفهوم التحدث لغة، واصطلاحًا، ثم ينتقل إلـــى وصف عملية التحدث، وما يحدثه الإنسان داخليًا وخارجيًا أثناء التحدث، وذلـــك من خلال الإجابة عن السؤال المطروح : كيف نتحدث ؟.

وللتحدث أغراضه ومجالاته المختلفة وأنواعه التي يتناولها هـــذا الفـــصل وصفًا، وتفسيرًا من خلال إجابته عن السؤال المطروح: لماذا نتحدث ؟.

والتحدث بوصفه فنًا لغويًا تعبيريًا له أهميته في حياة الإنسان، ودوره فـــي قضاء الحاجات والتعبير عن الأغراض، وهذا ما يبرزه الفـــصل تحـــت عنـــوان أهمية التحدث، ثم مزالق التحدث وخطورته .

ثم ــ بعد ذلك ــ بعض التوجيهات التي يجب أن تراعى من قبل المتحدث، حتى يكون حديثه واضحًا مُبينًا مثمرًا وذلك في معرض الإجابة عـــن الـــسؤال المطروح كيف تكون متحدثا جيدًا ؟.

وتنحو الدراسة فيما بعد منحي قرآنيًا ؛ حيـــث تقدم حصرًا للصيغ اللـــغوي المعبرة عن التحدث في القرآن الكريم مع توضيح الدلالات التفسيريومتضمناتها.

وبذلك يكون هذا الفصل قد ألقى الضوء على الأبعاد الفنية للتحدث بوصفه فنًا لغويًا، وحدد الملامح القرآنية للتحدث بوصفه سلوكًا إنسانيًا .

مقدمة

التحدث هو أول نظام لإنتاج اللغة، يتعلمه الإنسان، وهو الفن اللغوي الثاني،من حيث ظهوره في الممارسة اللغوية، تبدأ الممارسة الفعلية للغة في حياة الطفل، ومن خلاله يكون التعبير، والتفاعل الإيجابي مع المجتمع، فقد أمضي شطرًا من طفولته مستمعًا لا يملك إلا الاستماع ثم الإختزان، أي أنه كان عنصرًا سالبًا في التفاعل القائم علي استعمال اللغة، يستقبل، ولا يرسل .

ويبدأ الطفل في إرسال أول كلماته عندما تنمو لديه أعضاء النطق، معتمدًا على ما اختزنه من قبل عن طريق الاستماع .

وقد فضل الله الإنسان على سائر المخلوقات، إذ زوده بنظام كامل لإنتاج الأصوات ممثلاً في أعضاء النطق،التي يعتمد عليها في التحدث تلك الأعضاء التي لو تعطلت، أو تعطل بعضها لفترة محدودة لضاق الإنسان بما يدور بداخله من أفكار، وما يعمل في صدره من مشاعر، يعجز عن التعبير عنها لمن حوله، بل إن قضاءه حاجات يصبح أمرًا مضنيًا بالنسبة له، ومحيرًا لمن حوله، وخاصة أنه لا يجيد الإشارة كالأبكم، وحتى إن أجادها فليس مَنْ حوله بقادرين علي تفسير هذه الإشارات بسهولة، ولك أن تتصور حال من يُصاب بأي داء في فمه أو حلقه، وحال من حوله إلى أن يشفى بأمر الله .

والتحدث سبيل الإنسان للتعبير عن ذاته، وأفكاره، ومشاعره وكل ما يختلج به صدره، ومن ثمَّ فإن الإنسان قد يعلو شأنه، ويزداد احترام مستمعيه له، أو قد ينتقص قدره واحترامه بين مستمعيه بسبب كلمة يقولها وهذا يتأكد عندما نتأمل قولهم: المرء بأصغريه، لسانه وجنانه أو قلبه ولسانه . وما أجمل ما أبدعه زهير ابن أبي سلمي في هذا الصدد إذ قال :ـ

وكائن ترى من صامت لك معجب *** زيادته أو نقصه في التكلم

فقد يعجبك الشخص ـ المرء ـ دون أن يدور بينكما حوار، وسرعان ما تفقد هذا الإعجاب بمجرد بدء التحاور، أو قد يزداد إعجابك به، وبطبيعة الحال فذلك راجع إلي ما تحدث به .

ونحن نتحدث كل يوم، وإن شئت فقل كل ساعة، وإن شئت فقل كل الوقت، ولكن هل توقف أحد لحظة ليتأمل ما يفعله أثناء حديثه، أو يسأل نفسه مرة ما هذا الذي يؤديه؟ أقصد التحدث، وكيف يؤديه ؟ ولماذا ؟ وماذا لو لم يستطعه ؟ وكيف يرتقي بأدائه في التحديث، كل هذه أسئلة تستوجب التأمل في صنع الله، ولعل هذا التأمل يقودنا إلى إجابات تحتاج منا إلى كثير فحص ...

ولعل المدخل الطبيعي أن نعرض لمفهوم التحدث ـ لغة واصطلاحًا ـ وهذا ما تعرض له النقطة التالية :ـ

أولاً:مفهوم التحدث (لغة واصطلاحًا):ـ

إن اعتياد ممارسة الشيء قد لا يدع للمرء فرصة للبحث عن مضمونه، ولاسيما إذا كانت هذه الممارسة مكتسبة بالتدريب والممارسة ـ أيضا ـ والتحدث من هذه الممارسات فالإنسان يكتسب القدرة على التحدث طفلا من خلال ممارسات الكبار من حوله، وتدريبهم إياه على النطق، وأداء الكلمات والعبارات، ويكبر، ويمارس التحدث، فإذا ما سئل ما التحدث ؟ وقف حائرا، وردد عبارات يستنكر بها هذا السؤال، وإن أعطى إجابة فهي أن التحدث يعني النطق .

وحسبنا هنا أن نهرع إلي المعاجم اللغوية، لنطلع على ما أوردته من معانٍ للتحدث، فقد أورد الرازي فى (مختار الصحاح) أن المحادثة، والتحادث والتحدث والتحديث، معروفات، ومثل ذلك في (لسان العرب) فقد أورد ابن منظور فيها ما يلي :

أ ـ الحديث : الخبر قليله وكثيره.

ب ـ الحديث: ما يُحدث به المحدث ، وحدثه الحديث ، وحدثه به.

ج ـ ومن نفس المادة (حدث) وردت كلمة (الحدوث) .

والحدوث: كون الشيء بعد أن لم يكن، ومنها : أحدث، والحدث والحدثي، والحادثة، والحدثان، وكلها بمعني، أي (الحدوث) .

ولكن أيِ المعاني الثلاثة السابقة يمكن أن نعَرف بها التحدث ؟

لنعد قراءة المعني الأول والثاني(أ ، ب) ألست تري أنهما يعنيان بنتائج التحدث، من كلمات، وعبارات، وأفكار تكون في مجموعها خبرا، يحدث به، أو ينقله شخص إلي آخر ؟.

وهذا المعني متداول على ألسنتنا، فنحن كثيرًا ما نقول: سمعت اليوم حديثًا إذاعيًا رائعًا. تقصد ما تحدث به المذيع، وتقول:ألقي الشيخ حديثه اليومي. تقصد ــ أيضًا ــ ما تحدث به الشيخ، أي أن معني الحديث هو كل ما أرسله المتحدث من كلمات وجمل وعبارات وأفكار اجتمعت وامتزجت لتكون رسالة .

ثم لنعد قراءة المعني الثالث (ج) فالحدوث كون الشيء بعد أن لم يكن .. ألست تري أن الحديث ــ الذي هو نتاج عملية التحدث ــ لم يكن شيئا قبل أن يتحدث به ؟ ثم ألست ترى أن الإنسان ــ وهو يتحدث ــ يأتي بحركات من خلال الحنجرة واللسان، والشفتين، والأسنان، لم تكن شيئا قبل أن يتحدث الإنسان، فهو يحدثها، ثم ألست تري أن ما يتضمنه الحديث من كلمات، وجمل، وأفكار، بل ومشاعر، كل هذا وغيره مما يصاحب الحديث من إيماءات وإشارات وغيرها، ألست ترى أن كل ذلك لم يكن شيئا قبل أن يتحدث المتحدث ؟.

الحديث إذن شيء، وجد، وكان من قبل غير موجود، والسبب في حدوثه أو إيجاده هو عملية التحدث، التي تعتمد على إحداث حركات من خلال جهاز النطق لإصدار أصوات تعبر عن معانٍ وأفكار يحاول المتحدث نقلها .

وهكذا نلاحظ أن المعنيين الأول، والثاني عُنيا بالنتاج أو المحتوى وهو الحديث، أما المعنى الثالث فقد عني بالعملية ذاتها، ونحن عندما نقصد " التحدث " إنما نعني بالعملية، وليس بنتاجها .

وثمة إضافات أخرى عن عملية التحدث، يمكن أن نسوقها هنا، فلكون عملية التحدث تحدث في مجتمع، لها مضامينها، ودلالتها الاجتماعية، فتحدث لغرض ما، من قضاء الحاجات، أو نقل الفكر أو التعبير عن المشاعر .

كما أنها تتطلب من المتحدث أن يكون ملمًا ببعض المهارات التي تعينه علي استخدام اللغة، وتبليغ الرسالة الشفوية للمستقبل، فضلا عن كونها لا تتم

بدون تفكير، إذ أن التفكير عنصر جوهري في هذه العملية، وسوف يتضح ذلك في حينه مما تقدم يمكن تعريف التحدث بأنه:

أداء لغوي يحدث في إطار اجتماعي، يعتمد على الصوت، لنقل الفكر، والتعبير عن المشاعر، وهو نظام متعلم، يتضمن القدرة علي التفكير واستخدام اللغة .

وقولنا إنه نظام، يعنى أنه مجموعة من القواعد والقوانين، تلك التى تتمثل فى القواعد اللغوية، والقوانين الاجتماعية التى تحكم عملية التحدث باللغة فى المواقف المختلفة.

كما أن قولنا: إنه متعلم، ينفي عنه كونه غريزيًا، فالإنسان يتعلم التحدث، وليس مولودا به، وإن امتلك أدوات التحدث وجاء بها إلى الحياة، ولا تعمل هذه الأدوات إلا من خلال ممارسة ومحاكاة، فلو أتيت بطفل مولود، وعزلته عن البيئة اللغوية تمامًا، كأن وضعته بين مجموعة من الحيوانات لمدة سنوات، فإنه لن ينطق لغة إنسانية، وإنما يصدر أصواتا كأصوات الحيوانات التي عاش بينها، ويؤكد ذلك تلك القصة الشهيرة (أمالا وكمالا)؛ حيث عثر عليهما أحد علماء الهند، في إحدي الغابات، بعد أن تلقفتهما الذئاب، وحافظت عليهما، وقد اكتسبا عادات الحيوانات من المشي على أربع، والصراخ، وإصدار أصوات الحيوانات ... إلخ مما استحال معه إعادتهما إلى ممارسة اللغة البشرية ...

ثانيًا : كيف نتحدث ؟.

التحدث تعبير، والتعبير عبور من داخل الإنسان إلي خارجه، أي أن ما يحدث به إنما يمر، أو يخرجه الإنسان من داخله إلى الخارج، وهذا ما عبر عنه شاعرنا العربي المتنبي بقوله :ـ

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فما يعتمل داخل الإنسان من أفكار، ومشاعر، وما يختزن في ذاكرته من كلمات، وتعبيرات، كل ذلك هو المادة الخام، التي تعالج من خلال عمليتين: أحداهما: تتم في عقل الإنسان، والأخرى: تحدثها أعضاء النطق؛ لتتم بذلك عملية التحدث كاملة ، وفيما يلي تفصيل لهما :ـ

أولاً : يتعرض الإنسان لموقف، يتطلب منه أن يتحدث، هذا الموقف له ظروفه، وملابساته، التي تميزه عن غيره من المواقف، كأن يكون الموقف تهنئة، أو مواساة، أو حث على فعل الخير، أو ترهيب من المعصية، أو مسامرة صديق ... إلخ . فلكل موقف من هذه ما يميزه عن غيره، ولكل مقام مقال ..... ومن خلال تواجد الإنسان في الموقف، فإنه يدرك أبعاده ، ويستشعر ملابساته ، فتصل الإشارات إلى العقل، ليجري العملية الأولي ...

وهنا يحاول العقل أن يطابق بين المقام والمقال من ناحية، وإنشاء الرسالة من ناحية أخري، أما بالنسبة للمطابقة بين المقام والمقال فتحدث من خلال تحديد المحتوى الفكري الملائم للرسالة التى يمكن إرسالها في مثل هذا الموقف،واختيار الألفاظ والتعبيرات والجمل والتراكيب المناسبة للرسالة والموقف، وهذه عمليات عقلية تتم في الداخل .

أما فيما يتعلق بإنشاء الرسالة اللغوية، فإن ذلك يتم من خلال: تجميع الكلمات، وتركيب الجمل، والربط بين الأفكار،وتنظيمها في وحدات لغوية في ضوء ما تسمح به قواعد النحو والصرف، واستخدام التوضيحات والتأكيدات التي تزيد من وضوح الفكرة، وهذه ـ أيضا ـ عمليات عقلية تتم في الداخل .

وهنا تكون الرسالة اللغوية الملائمة للموقف الذي أثار الإنسان للتحدث قد تم إنشاؤها، ووضعت لبناتها ، فتبدأ العملية الثانية ...

ثانيًا : بعد أن تكونت الرسالة في الداخل فلابد لها أن تخرج، وفي التحدث تنتقل الرسالة اللغوية عبر الصوت، وهنا تبدأ العملية الثانية، التي تمثل البعد التقني في عملية التحدث الذي يتعلق بآليات النطق والأداء الصوتي، والتحدث هنا مرهون بنضج الجهاز النطقي في التحرك لإصدار أصوات لغوية تعبر عن معني الرسالة التي أنشأها العقل في الداخل .

وتعتمد هذه العملية على التمييز بين مخارج الأصوات، وصفاتها، وتنويع الصوت، وإخراجه فى طبقة مناسبة، كما أنها ترتبط باتساق كل العناصر التي تكون آليات التحدث وتناغمها،واسترخاء العضلات المستخدمة في التحدث بصفة خاصة،وعضلات الجسم كلها بصفة عامة، والمرونة،والتحكم في الشفتين واللسان، والتحكم في عملية الشهيق والزفير، وضبط عملية التنفس .

والعمليتان السابقتان تحدثان في فترة زمنية قد لا يعيها الإنسان لقصرها، وخاصة في مواقف التحدث، التي لم يعد لها من قبل، والتي تعتمد على المواجهة الموقفية .

وعملية التحدث شأنها شأن أى عملية لغوية،أو غير لغوية، يقوم بها الإنسان، عرضة للا ضطرابات والأخطاء .

أما الاضطرابات في العملية الثانيـــة (الأداء الـــصوتي) فتـــشمل: التأتـــأة، والفأفأة، والتأتأة، وغيرها من تلك العيوب التي قد تكون خلقية، أو ناتجة مـــن عدم ثقة المتحدث بنفسه .

أما الأخطاء التى يمكن أن تحدث في العملية الأولي: (العملية العقليـــة) فمرجعها دائما إلي اضطراب في تفكير المتحدث، وعدم قدرته على معالجة اللغة المستخدمة، فيخرج حديثه إما منحرفًا عن القصد، وفي هذه الحالة غالبًـــا مـــا تسمع من المتحدث عبارة تدل علي أسفه " (آسف)، لست أقصد هذا، وإنمـــا أقصد كذا " هذا في حالة تداركه للخطأ .

وإما أن يخرج حديثه مكتظًا ـ مليئًـــا ـ بالأخطـــاء النحويـــة، وبالجمـــل الناقصة،أوالألفاظ غير المنتقاة، وهذه الأخطاء كفيلة بأن تغير مضمون الرسالة كلها .

وغير هذا وذاك، فإن من المتحدثين من يسهب في حديثه بغير طائل، ومن يتشعب حديثه، فيغدو، ويروح، وقد ابتعد عن موضوعه الأصـــلي كـــل البعـــد، وهناك من يتقعر في لغته زاعمًا أن تلك هي الفـــصاحة، وهنـــاك مـــن يتعمـــد الإعراب، ومن يغفل الإعراب، ومن تجد حديثه مكرورًا، وإلقاءه منفرًا .

كل هذه عيوب التحدث، وهي إنما تشير إلي أن هناك اضطرابا في تفكيـــر المتحدث أو في شخصيته، أو في لغته، وكلها أمور تفسد الحـــديث، وتـــشتت الرسالة.

وأخطاء التحدث واضطراباته ليست بالظاهرة الحديثة، وإنما هي قديمة قدم ممارسة الإنسان للتحدث، فقديما عرف العرب هذه الظواهر وانتقدوها، بل وأخذوا يتهاجون بها .

فهذا أحد شعرائهم، وهو النمر بن تولب ـ يستعيذ بالله من العي والحصر وهما عدم البيان، وضيق العبارة في التحدث ، فيقول :ـ

أعذني ربي من حصر وعيّ *** ومن نفس أعالجها علاجا

وهذا بشار بن برد، يقول :ـ

وعيّ الفعال كعيّ المقال *** وفي الصمت عيّ كعيّ الكلم

ومما قيل في ذم العي قول أحدهم :ـ

وما بي من عي ولا أنطق الخنا ** إذا جمع الأقوام في الخطب محفل

وفي هذا الصدد سئل (بزر جمهر) الحكيم الفارسي: أي شيء أستر للعي ؟ قال: عقل يجمله، قيل فإن لم يكن له عقل ؟ قال: فمال يستره، قالوا: فإن لم يكن له مال ؟ قال: فإخوان يعبرون عنه، قالوا: فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه ؟ قال: فيكون ذا صمت، قالوا: فإن لم يكن ذا صمت،؟ قال: فالموت خير له من دار الحياة .

إلي هذا الحد بلغ نفورهم من العي في التحدث، وإلي هذا الحد نشعر بالملل من محدثنا، ونتمنى أن لو كف عن التحدث، إذا لم يكن يبين في حديثه .

وفي عملية التحدث، لا يمكن الفصل بين ما يحدث في العقل، وما تحدثه أعضاء النطق على الرغم من أن الثانية تدل على الأولي، وتشير إليها .

وقديما قالوا :ـ " عقل المرء مدفون بلسانه ".

وقالوا: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكر، فإن كان قال، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل من وراء لسانه، فإن هم بالكلام تكلم به له، أو عليه " .

هكذا عرفنا كيف نتحدث ؟ وما يحدث في داخلنا وينطلق إلى الخارج للتعبير عن مشاعرنا وأفكارنا ، وهذه العملية (التحدث) لها وظائف حيوية في حياة الإنسان يمكن التعرف عليها فيما يلي :ـ

ثالثًا : لماذا نتحدث ؟ .

عرف " ابن جني " ـ قديما ـ اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، ومن هذا التعريف ندرك وظيفة تلك الأصوات اللغوية، التي تصدر عن الإنسان، وهو يتحدث، أو بمعني آخر ندرك لماذا نتحدث ؟ فنحن نتحدث لنعبر عن أغراضنا .

وللناس في حياتهم أغرض وحاجات كثيرة، وللتعبير أغراضه ومجالاته التي تتعدد بتعدد أغراض الناس، غير أن التحدث بوصفه جانب التعبير الذي يعتمد على اللسان،ومهما تعددت مجالاته، فهي تنتمي إلي نوعين لا ثالث لهما.

١ـ فإما أن يكون التحدث مرتبطًا بأغراض وظيفية، وهذا هو النوع الأول، وهو ذلك النوع من التحدث الذي يجري بين الناس في حياتهم العامة، ومعاملاتهم عند قضاء حاجاتهم، وتنظيم شئونهم .

وفي هذا النوع يعمد المتحدث إلي وضوح الفكرة، ووضوح الهدف ودلالات الألفاظ دون جنوح إلي النواحي البلاغية، أو اللغة التأثيرية .

ومن المجالات التي يكون التحدث فيها وظيفيا:المحادثة،المناقشة, والمناظرة، والاجتماعات والتقارير، واستعمال الهاتف .

أما المحادثة: فهي تبادل الأفكار أو المعلومات بين شخصين أو أكثر، وهي نشاط لغوي يتطلب من المتحدث القدرة علي التفكير بوضوح، والقدرة على الإقناع، والمجاملة، ومعرفة الأوقات التى ينبغي التحدث فيها .

والمناقشة : نشاط لغوي قوامه القدرة على التفكير، وممارسة إبداء الرأي والتعاون العقلي، وهي لب العمل الديمقراطي السليم،الذي يقوم على اشتراك الناس في التفكير للوصول إلى قرار جماعي، أو إقرار وجهة نظر معينة .

أما المناظرة : فهي نشاط جماعي يدور حول مباراة كلامية في موضوع ما، أو محاجة شفوية، تدور حول اقتراح معين، وتقوم علي استعراض وجهات النظر المتعارضة، والتركيز على نقاط الجدل والحوارالتي توضح أوجه الخلاف، وفيها يكون المتحدث مرتبطا غاية الارتباط بأفكار من يحاوره، ومن ثمَّ فهي تقتضي منه القدرة علي الإقناع، وإبطال الحجة، ووضوح العبارات، ودقة الألفاظ.

والاجتماعات : سواء أكانت رسمية أم غير رسمية، فما يجري التحدث فيها لتحقيق غرض معين، هو الغرض من الاجتماع، وهنا يلتزم المتحدث بهذا الغرض في تحدثه، ومن ثمَّ فلا مجال لكلام غير ذي معني، ولا مجال للحشو والتزيد، وإلا لما وصل الاجتماع إلى شيء .

والتقرير: هو حديث مُعَد قبلا، ومنظم من حيث نظام العرض، وحجج الإقناع ويمارس هذا اللون من التحدث عندما يرفع أحد المختصين تقريرًا شفويا إلي قيادته عن سير العمل في دائرة اختصاصه، أو يقدم تقريرًا عن إنجاز الشركة أو المصلحة، أو الهيئة في مشروع معين، وما شابه ذلك من مواقف .

واستعمال الهاتف: هو الآخر من مجالات التحدث التي يكون الكلام فيها وظيفيا للغاية،ومحددًا بالغرض من الاتصال،ويعتمد علي الإيجاز وتوجيه الرسالة في أقل عدد من الكلمات، مع الوضوح التام وخلوها من كل ما يمكن أن يحتمل معنيين في فهمه .

٢ــ أما النوع الثاني للتحدث : فيكون التحدث فيه مرتبطًا بأغراض إبداعية؛ حيث يكون التركيز فيه علي إظهار المشاعر،والإفصاح عن العواطف، وخلجات النفس، وترجمة الأحاسيس المختلفة بعبارة منتقاة اللفظ، جيدة النسق، بليغة الصياغة، تنتقل إلى ذهن المستمع انتقالاً مؤثرًا، فتهز مشاعره، وتدعوه إلى المشاركة الوجدانية .

ومن المجالات التي ينطوي التحدث فيها على جانب من الإبداع: الخطابة وحكاية القصص؛ حيث تعتمد مثل هذه المواقف على الإبداع إعدادًا، وإلقاء، والانتقال بالإحداث والقدرة علي التفكير،وبناء الجمل، وتركيب الأسلوب، والانطلاق الحر في التعبير والقدرة على السرد، وتمثيل المعاني .

وللإبداع في التحدث سر يأخذ بالألباب، ويأسر القلوب، فكم من خطيب يستحوذ علينا بحسن بيانه وفصاحة لسانه، وكم من راو يجتذب انتباهنا بعقولنا وجوارحنا، ونحن نستمع إليه، إنه سحر البيان الذي قد يصور الباطل في صورة الحق، ويصور الحق في صورة الباطل، إذا لم يتق المتحدث الله تعالى فيما يقول، وفي هذه الرواية ما يريك سحر البيان .

فيروى أن الزبرقان بن بدر وعمر بن الأهتم وفدا إلى رسول الله (ﷺ) فقال الزبرقان: يا رسول الله، أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجاب منهم ، أخذ لهم بحقهم، وأمنعهم من الظلم، وهذا يعلم ذلك ــ يعني عمرا ــ فقال عمرو: أجل يا رسول الله، إنه مانع لحوزته (ما يملكه)، مطاع في عشيرته، شديد المعارضة فيهم (البديهة وقوة الكلام) .

فقال الزبرقان: أما أنه والله قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني شر في فقال عمرو: أما والله لئن قال ما قال، فو الله ما علمته الأضيق العطن (كناية عن البخل)، زمر المروءة (قليلها)، أحمق الأدب، لئيم الخال، حديث الغنى .

فرأي الكراهة في وجه رسول الله (ﷺ) لما اختلف قوله، فقال : يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولي، ولقد صدقت في الثانية .

فقال رسول الله (ﷺ) : " إن من البيان لسحرًا " .رواه البخارى ومسلم .

وفي هذه الرواية ما يشير إلي لباقة هذا الرجل وفصاحته، فضلاً عن سحر بيانه، فقد استطاع بذكائه الفطري أن يوظف ما يعلمه من الصفات الطيبة عن الزبرقان، ليعبر بذلك عن رضاه، ثم في اللحظة نفسها تجده يوظف ما عمله من الصفات الذميمة، ليعبر عن سخطه، ولم يكذب في الحالتين .

إنه ــ بلا شك ــ إبداع يعتمد على الذكاء، وسرعة البديهة، وحسن التخلص، واختيار المقال المناسب للمقام .

ذلك الإبداع تجده لدى كل متحدث يحاول أن يؤثر في مستمعيه، أو يدعوهم لمشاركته وجدانيًا .

* * *

وإذا كنا قد تعرفنا على مجالات التحدث، وأغراضه، فجدير بنا أن نعرج إلى أهمية التحدث، وهذا ما نعرض له في النقطة التالية :ـ

رابعا : أهمية التحدث :

لعله من نافلة القول أن نشير إلى أن اللسان هو الطريق الطبيعي الذي يترجم به المتحدث عن أحاسيسه ومشاعره، ويشير إلى ما تحمله النفس البشرية من ألم، أو سرور، أو إعجاب، أو غير ذلك من انفعالات .

والتحدث هو جانب التعبير الأكثر شيوعًا بين الناس، يمارسه الصغار والكبار، والمتعلمون وغير ذوي المعرفة بالقراءة والكتابة، وهو أسرع من الكتابة، وأقرب إلى الممارسة منها إذا ما أراد الإنسان أن ينقل فكره لغيره، أو يشركه مشاعره، وأفراحه، وأتراحه، وليس في ذلك ما يقلل من شأن الكتابة، فللتحدث مواقفه التى قد لا تصلح لها الكتابة، وللكتابة مواقفها قد التي لا ينفع معها التحدث.

وقد أشرنا في موضع سابق إلى أن الإنسان ينبغي أن يكون مُقلاً في تحدثه. حيث إن الله قد زوده بلسان واحد، بينما منحه أذنين، ومن ثمَّ قد يتبادر إلى الذهن أن التحدث لا قيمة له، ولا أهمية له، وأن الخير كل الخير في الصمت ،والحق غير ذلك ... فرب صمت أسقط صاحبه، ورب تحدث رفعه، وقد يسقط الإنسان بحديثه، وقد يرتفع به، وقد يرتفع بصمته كذلك، فللصمت مواضع يكون فيها أبلغ من الكلام ، وللتحدث أهمية لا تقلل من شأنها بلاغة الصمت .

وقديما حسم الشاعر الجاهلي " أحيحة بن الجلاح " هذه المسالة بحيث قال:

كل ذلك إنما يدل على حرصهم على الإبانة، والوضوح فيما يتحدثون بـــه، لكي تصل الرسائل إلي مستمعيها واضحة معبرة .

وللتحدث كذلك أهمية خاصة تتمثل في كونه وسيلة للتعليم والتربية، فهـو الأسلوب الذي يستخدمه الوالد لتعليم أولاده وتربيتهم، وطريق ذي الخبرة لنقل خبرته للآخرين والوسيلة الأساسية لإلقاء المواعظ وتعليم عامة النـــاس أمـــور دينهم، بل ودنياهم.

وهو ــ أيضا ــ وسيلة المعلم للتفاعل مع تلاميذه، وتعليمهم، كمـــا أنـــه وسيلة الإنسان لإعطاء الأوامر والتوجيهات، وتوضيح وجهات نظره للآخـــرين، والتعبير عن آرائه ومعتقداته .

وفضلا عما تقدم: فإن التحدث قد يكون مهنة فئة من الناس، يتكسبون بها ويعيشون منها ومن هؤلاء: الخطباء، والمذيعون، والمعلمون.

وهنا يكون للتحدث دوره الخطير في نقل الأفكار والمتعقدات، والاتجاهات، وغرس القيم لدي المستمعين .

ورغم أهمية التحدث، ودوره المهم، فإن له مزالقه، وله خطورته التـــي لا ينبغي إغفالهما، وهذا ما تفصله النقطة التالية .

خامسًا : مزالق التحدث وخطورته :

لقد خلق الله تعالى الإنسان، وزوده بالأجهزة التي تمكنه من ممارسة الفنون الأربعة، ومن ثم وجب على الإنسان ألا يقرأ، أو يكتب، أو يستمع إلي ما يغضب الله، أو يتحدث به، ولعل التحدث أخطر هذه الفنون الأربعة، من حيث علاقته بقضية الإيمان والثواب والعقاب، فالإنسان محاسب ومؤاخذ بكل ما يصدر عنه من أقوال :ـ

يقول الحق سبحانه:﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النور : ٢٤.

ويقول: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ق: ١٧ ـ ١٨.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ترى تحذيرات أشد، ففي حديث معاذ ـ رضى الله عنه ـ الطويل بعد أن سأل رسول الله (ﷺ)،عن الإيمان وعن الإسلام، وإخباره برأس الأمر وعموده وذروة سنامه .. بعد هذا كله يقول(ﷺ) : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلي يا رسول الله، فأخذ بلسانه، وقال :" كف عليك هذا ". قلت ـ أي معاذ ـ يا رسول الله . وإنا لمؤاخذون بما نتكلم ؟: فقال: " ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار علي وجوهم إلا بحصائد ألسنتهم" ؟ رواه الترمذى .

وروي الترمذي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي (ﷺ) أنه قال:" إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا ".

وأكد ذلك ـ أيضًا ـ، ما فعله أصحاب رسول الله (ﷺ)، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه، ويمنع نفسه من الكلام، ويشير إلي لسانه ، ويقول: " هذا الذي أوردني الموارد ".

بل ويقسم عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بالله الذي لا إله إلا هو قائلاً :" ما علي الأرض شيء أحوج إلي طول سجن من اللسان"

وها هو الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ يقول :ـ " من كثر كلامه كثر خطؤه . ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار" .

إلي هذا الحد بلغت خطورة اللسان، وما ينطق به الإنسان، وإلي هذا الحد تكون الكلمة مسئولية، وإنما يرجع هذا إلي أن التحدث ليس مجرد عملية آلية يتلفظ الإنسان من خلالها ببعض الكلمات، وإنما اللسان ناقل، ومترجم لما أفرزه العقل وأنشأه، ومن ثمَّ فإن الإنسان يجب أن يفكر جيدًا قبل أن ينطق، حتى لا ينزلق إلي مزالق السوء اللسانية، هذه المزالق التي تردي الإنسان في نار جهنم ، فقد قال: (ﷺ) فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه " إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالي لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم ".

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال: " أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك علي خطيئتك ".

وعن سفيان بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ قال : قلت: يا رسول الله ، ما أخوف ما تخاف علي، فأخذ بلسانه (لسان نفسه)، ثم قال: " هذا ".

ولكن أي مزالق هذه التي يقع فيها اللسان ؟

إنها كثيرة، وينزلق إليها المتحدث سواء بوعي أو بدون وعي مثل: الكذب والغيبة والنميمة، والخوض في الأعراض، وفيما لا يعني الإنسان، والتحدث بدون وعي، وادعاء العلم ببواطن الأمور، وقول الزور، والفتنة، والنفاق، ومدح الإنسان، بما ليس فيه، وتتبع عورات الناس، والكذب في اليمين، والفحش، واللعن، وسوء الخلق، والحسد، وإفشاء السر .

ورحم الله الإمام الشافعي، إذ قال :

إذا ما شئت أن تحيا سليمًا من الأذى ** وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ** فكلك عورات وللناس ألسن

ورغم المزالق السابقة ، فإن اللسان له إيجابياته مثل: الدعوة إلي خير الأمور، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، وذكر الله .

ولما كان الأمر كذلك فثمة حاجة إلى أن نتعرف على سمات المتحدث الجيد، الذي يفيد من الجانب الإيجابي للسان، وهذا ما تعرض له النقطة التالية :ــ

سادسا : كيف تكون متحدثًا جيدًا ؟

ما من شك أن كل إنسان يتمني، بل ويحاول أن يكون حلو المنطق، عذب الحديث مؤثرًا في مستمعيه، ونحن هنا نقدم إرشادات وتوجيهات تساعدك على تحقيق ذلك، وهذه ما تمثله الفقرات التالية :ـ

ـ اجلس، أو قف في وضع مريح، وأنت تتحدث، بحيث تسمح لعضلات جسمك كله بالاسترخاء والراحة، وبذلك تنسجم العضلات المستخدمة في التحدث، ويخرج الصوت واضحًا نقيًا دون تشويش أو حشرجة .

ـ حاول قدر استطاعتك أن تنظم عمليتي الشهيق والزفير، لضبط النفس، والتحكم في أعضاء النطق، حتى لا يحدث تشويش أو إعاقة، أو تشويه للصوت من أي مصدر داخلي .

ـ إذا تحدثت فأخرج الأصوات من مخارجها الصحيحة، وتلك عملية مهمة ، بل غاية في الأهمية، حيث إنّ إخراج كل صوت من مخرجه الصحيح يعد أمرًا مهمًا وضروريًا للتمييز بين الأصوات، حتى لا تختلط وتتداخل .

ـ تحدث بصوت واضح ومسموع، ووضوح الصوت هنا يتوقف على قدرتك على تكييف صوتك بما يتناسب وعدد المستمعين، ومساحة المكان الذي يجري فيه التحدث .

ـ تجنب رتابة الصوت في تحدثك، وذلك بتنويع الصوت بما يتلاءم مع المعني الذي تقدمه، لأن رتابة الصوت تصيب المستمعين بالملل، وبالتالي لا تصل رسالتك إليهم كما تريد لها أن تصل .

ـ ابتعد تمامًا عن التكرار في تحدثك. لأن التكرار قد يشتتك فيخرج بك عن صلب الموضوع ، فضلاً عن أنه يشتت المستمع .

ـ تجنب اللازمات وأنت تتحدث، واللازمة هي تلك الكلمة، أو الجملة التي يكررها بعض المتحدثين عند كل وقفة، أو عند بداية كل عبارة ينطق بها، وهذه اللازمة قد تؤخذ عليك من قبل من يستمعون إليك، وقد يشغلون أنفسهم بحساب تكراراتها في حديثك منصرفين بذلك عن موضوع الحديث .

ـ حاول أن تعرف كل شيء عن مستمعيك من حيث: العمر،والمستوى الثقافي والاجتماعي، والاستعداد لتلقي موضوع حديثك، والحالة النفسية، والظروف الفيزيقية التي تحيط بك أثناء التحدث من حيث الزمان والمكان، فكل ذلك من شأنه أن يساعدك على تكييف رسالتك، وإبلاغها كما ينبغي .

ـ يجب أن تختار موضوع حديثك، وتنتقي لغته، بحيث يتناسب مع ظروف من يستمع إليك وخلفياته .

ـ عبر بصوتك عما تنقله من معانٍ، فالاستفهام، والتعجب، والنفي، والأمر، والنهي والرجاء، كل معني من هذه المعاني يجب أن يعبر عنه صوتيًا بالشكل الذي يبرزه ويحدده، وينقل دلالته إلي المستمعين، هذا فضلا عن الملاءمة بين نبرة صوتك والوقفة أثناء التحدث .

ـ ابتعد عن الحشو، والتزيد في حديثك حتى لا تكون مصدر تشويش علي الرسالة التي تبثها، وكما يقال دائما، بأن خير الكلام ما قل ودل، كما أن كثرة الكلام مرقاة إلي الخطأ والوقوع في المحظور .

إذا سئلت فلتكن إجابتك علي قدر السؤال دون زيادة أو نقصان.

لأن النقصان عيب في إجابتك، والزيادة لا معني لها بالنسبة للسائل، فضلا عن أنها قد تكون نوعًا من الرياء، أو نفاقا لمحدثك، وإلا فلماذا زدتها ؟.

وفي هذا الصدد يروي الجاحظ في البيان والتبيين أن طاهر بن الحسين قال لابن عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلي العراق يا أبا عبد الله ؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة .

قال يا أبا عبد الله، سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين ؟.

ـ لا تتحدث فيما لا يعنيك، ولا تشارك في حديث إلا إذا طلب منك حتى لا تعرض نفسك لسماع ما لا يرضيك، ونعتك بالتطفل .

ـ إذا تحدثت فليكن حديثك واضحا، ولتحاول أن تفهم مستمعيك بكل ما تستطيع من طرق .

ـ فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي (ﷺ) " كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاث حتى تفهم عنه، وإذا أتي علي قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا ".

ـ وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: " كان كلام رسول الله عليه وسلم فصلاً يفهمه كل من يسمعه ".

ـ يجب أن تعرف جيدا متى ينبغي أن تكف عن التحدث ؟ أي تصمت، ومتى ينبغي أن تتحدث ؟ ومتي ينبغي أن تطيل ؟ ومتي ينبغي أن توجز ؟.

ـ كن مجاملا لمحدثك ـ في غير نفاق ـ حتى يدور الحوار في جو من الألفة والمودة والاحترام المتبادل .

ـ احترم مستمعيك، فلا تهزأ بهم، ولا تسخر منهم، ولا تتعالَ عليهم، حتى لا تفقد احترامهم لك، واستجاباتهم لرسالتك .

ـ احترم الرأي الآخر دائمًا حتى لو كان مخالفًا لرأيك، أو مناقضًا له، وإن شئت مناقشته فبالعقل والمنطق .

ـ قبل بدء أي حديث ، قَصُرَ أو طال، فيجب أن تحدد الهدف منه، حتى تصل إلي ما تريد بسرعة وسهولة، ودون تزيد، أو إخلال بالمعني الذي نقله .

ـ نظم موضوع حديثك في ضوء الهدف الذي حددته، وذلك بأن تقدم موجزاً للموضوع، يتضمن الأفكار الرئيسة، ثم تتناول كل فكرة، وما يرتبط بها من أفكار فرعية. وتستوفي الفكرة قبل أن تنتقل لغيرها، وتعرض التفاصيل في دقة، وتصنف المعلومات، التي تقدمها، وتناقش الأفكار الجديدة التي تعرضها

وتوضحها، ثم تقدم ملخصًا للموضوع يتضمن النقاط المهمة .

ـ في نهاية حديثك عليك أن توحي بنبرات صوتك إلي اقتراب النهاية حتى يستعد مستمعوك للنهاية .

ـ وأخيرا تذكر دائمًا وفي كل موقف تحدث تتعرض له قوله (ﷺ): " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ".

<u>وبعد :</u>

فتلك أهم الملامح الفنية للتحدث بوصفه فنًا لغويًا، ولنا مع التحدث وقفة أخرى للتعرف إلى ما أورده القرآن بشأن التحدث(إحصاء، وتفسيرًا، وتوجيهًا) وهذا ما سوف تجده في الصفحات التالية .

سابعًا :التحدث في القرآن الكريم :

سبق الإشارة إلى أنه الفن اللغوي الثاني من حيث ظهوره في ممارسة اللغة، وهو تال لعملية الاستماع، وهو أول أنظمة الإنتاج اللغوي ... وهو أداء لغوي يعتمد علي إحداث حركات من خلال جهاز النطق، لإصدار أصوات لغوية تعبر عن معان ومشاعر، يرغب المتحدث في نقلها للآخرين، وقلنا: إن القدرة على التفكير، واستخدام اللغة هما جوهر عملية التحدث بوصفها عملية لها نتاج يتمثل في الحديث .

ومن خلال التحدث ــ كما سبق ــ يكون التعبير، وتبادل الأفكار والآراء، ومن خلاله تنتج اللغة المنطوقة، في صورة أصوات ورموز، وتحمل اعتقادات واتجاهات وأفكار، وذلك من خلال صياغة كل ما تقدم في جمل وعبارات، وبأداء صوتي،وباستخدام بعض الإشارات التي قد تؤدى بعض الدلالات الإضافية للكلام.

وقد عالج القرآن الكريم " التحدث " بوصفه عملية، من خلال الصيغ الفعلية التي وردت بهذا المعني، وبوصفه نتاجًا، ومن خلال الصيغة الاسمية (الحديث) .

فقد عبر عن التحدث (٣٦) مرة، من خلال (٥) صيغ فعلية في (٦) آيات، ومن خلال الصيغة الاسمية (الحديث) في (١٨) آية، ومن خلال صيغة ثالثة بعيدة عن نطاق دراستنا هنا وهي (محدث) التي وردت مرتين .

وقبل أن نعرض لتلك الصيغ، ولتلك المعالجة ودلالتها، وإيحاءاتها التي يمكن التعرف عليها، فيحسن أن نعرضها جميعًا في الجدول التالي :ــ

نوع الصيغة	الصيغ	تفصيلها وتكرارها
الفعلية	ـ المضارع (٥)	تحدث ـ أتحدثونهم ـ أحدث ـ يحدث .
	ـ الأمـــر (١)	حدث .
	ـ المصدر (٢٣)	الحديث (١٨) ـ حديثا (٥) .
الاسمية	ـ الجمع (٥)	أحاديث .

ويمكن تفصيل تلك الصيغ، علي النحو التالي :ـ

أولاً : الصيغ الفعلية التي تعبر عن التحدث .

أولاً: لم يرد في القرآن الكريم أي فعل ماضي يشير إلي التحدث، وهذا أمر له دلالته، وإشارة لها معناها، فإنما يرجع ذلك ـ والله أعلم ـ إلي كون التحـدث عملية موقفية، ترتبط بسياق الحال، وتعتمد علي المشاركة والتبادل .

فالتحدث عملية آنية يشار إليها بصيغة المضارع وقت حدوثها، فيقال: فلان يتحدث أو أتتحدث في كذا ؟؛ حيث تتكون الإشارة وصفًا للعملية نفسها .

فهي المعنية بالإشارة، لأنها مازالت تجري، ولم يكتمل نتاجها بعـد، فـإذا انتهت العملية، وفرغ المتحدث، فإن الإشارة إليها بصيغة الماضي لا تعني شيئًا، إلا إذا كانت مصحوبة بالإشارة إلي موضوع الحديث، فيقال ـ غالبًا ـ : تحدث فلان عن كذا أو في كذا؛ لأن ما يعنينا حينئذ هو الحديث الذي تحدث به، وليست عملية التحدث نفسها، حيث يكون الحديث ـ بعد انتهاء المتحدث ـ شيئًا فـي ذاته، له بداية ونهاية ومضمون، بصرف النـظر عن عملية إيجاده، أو أحداثه التي ما أجريت إلا لإ نتاجه.

ومن ثمَّ فلم يرد في القرآن الكريم فعل ماضي واحد يشير إلي تلك العملية، بينما ورد ذكر الحديث في ثمانية وعشرين موضعًا في سياقات تشير إلي زمن ماض .

ثانيًا: لم يرد في القرآن الكريم أمر بالتحدث إلا في موضع واحد، وهو قوله تعالي: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى: ١١.

وفي ذلك إشارة واضحة لكل ذي عقل متدبر بأن يكون مقلاً في تحدثه قدر استطاعته حتى ينأى بنفسه عن مزالق التحدث التي أشرنا إليها فيما تقدم، وحتى يحفظ لسانه، فيضمن بذلك الجنة، فقد قال رسول الله (ﷺ): " من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة) أي: لسانه وفرجه .

وثمة إشارة أخري، نستوحيها من سياق السورة ـ الضحى ـ التي ورد فيها الأمر بالتحدث، تتمثل في أن الإنسان إنما أُمر بالتحدث بالنعمة، وليس بالتحدث علي الإطلاق بكل شيء وعن شيء، وينبغي ألا يفهم أن هذا الأمر موجه إلي الرسول الكريم (ﷺ) وحده، فمعناه يتسع ليشمل كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله اليوم الآخر، فالحق سبحانه يحب أن يري أثر نعمته علي عبده .

وليس يخفي علي أحد ما يمكن أن يعود على الفرد والجماعة من أثر التحدث بنعمة الله، فالمرء عندما يتحدث بنعمة الله أو عنها، ويكون حديثه إما شكرًا، وأما حمدًا، وإما تبليغًا وإخبارًا، وإما دعاء بالاستزادة منها، وإما دعوة للمحافظة عليها وصيانتها فلو أن كل متحدث تحدث بهذا، فلن تجد مكانًا للحقد، ولا للحسد، ولا للكراهية بين جماعة المسلمين،ولا انتشرت الفضيلة، وامتنعت الرذيلة في المجتمع الإسلامي .

وليس في ذلك ما يتعارض مع ما نتحدث به لقضاء حاجاتنا، والتعبير عن احتياجاتنا وأغراضنا، وتنظيم شئون حياتنا .

ثالثًا: وردت صيغة الفعل المضارع المعبرة عن التحدث بصورة أكثر تكرارًا من صيغة الأمر؛ حيث تكرر ورودها في القرآن الكريم خمس مرات، فيما يلي تفصيلها :ـ

١ـ ورد الفعل المضارع بصيغتين مختلفتين هما (تحدث) و (أحدث) في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهي تشير إلي حدث (هو التحدث) قائم بالفعل أو سوف يحدث علي النحو التالي :ـ

أ ـ قوله تعالي: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ الزلزلة : ٤. والإشارة هنا إلي العملية، عملية التحدث نفسها مع بيان مضمون الحديث، وهو: أخبارها .

والتعبير بالفعل المضارع (تحدث) هنا له قيمته ودلالته .

ففي الفعل (تحدث) حدث، وهو (التحدث، ولما كان التحدث لا يقع إلا من إنسان، وهو من أخص سماته، وقد نسبه الله إلي الأرض، فكان لابد من الإشارة بالفعل (تحدث)؛ لأنه يشير إلي عملية التحدث ذاتها، وهي مناط الإعجاز في تلك الآية .

فالإعجاز ـ والله تعالي قادر علي كل شيء هو أن تنطق الأرض، وما دامت تنطق فسوف تتحدث، ومادامت تتحدث فإنها سوف تخبر بما عمل العاملون على ظهرها، فليس الإعجاز هنا ـ كما نعتقد ـ هو الإخبار، وإنما هو التحدث، ولذلك كان الفعل (تحدث) ولم يقل ـ سبحانه ـ تخبر أخبارها. لأن الإخبار يمكن أن يكون بغير التحدث، ومن ناحية أخري، ففي الإخبار عن طريق التحدث ردع للإنسان وترهيب له، لأنه يعلمه ويمارسه، ويعلم أن الأرض شاهدة عيان عليه ، وسوف تتحدث بما رأت علي ظهرها .

وفي الفعل (تحدث) زمن هو الزمن الحاضر، فإن هذا الفعل في سياق الآيات يشير إلي ما سوف يحدث في المستقبل، وفي ذلك ما يشير إلى أن تحدث الأرض، وإن لم يكن يحدث بعد فإنه أمر واقع ومحقق في علم الله سبحانه .

ب ـ قوله تعالي: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ٧٦ .

فالآية الكريمة تصف استنكار اليهود على بعضهم أن يتحدثوا مع المؤمنين بما أنزل الله في كتابهم ـ التوراة ـ عن محمد (ﷺ)، أو بقولهم : إنه سيكون نبيًا ، أي الرسول الكريم .

وهنا ـ أيضا ـ تجد الفعل (تحدثون) في (أتحدثونهم) الذي يشير إلى (حدث) وهو تحدث بعض اليهود إلي المؤمنين بما أنزل الله في التوراة ، وقد جاء الجار والمجرور بعده (بما) متعلقا به ليشير إلي الموضوع الذي كانوا يتحدثون به، أي أن اليهود كانوا يستنكرون على بعضهم تحدثهم مع المؤمنين من ناحية، وموضوع الحديث من ناحية أخري .

ج ـ قوله تعالي:﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ الكهف: ٧٠. أي لا تبدأني بالسؤال، حتى أبدأك أنا، فأفسر لك ما خفي عليك. فالفعل (أحدث)، وإن كان بمعني الحدوث، الذي هو كون الشيء بعد أن لم يكن فإنه في سياق التحدث، فالذي سوف يحدثه الخضر (عليه السلام) ، ليفسر به ما خفي على موسى (عليه السلام) إنما هو حديث أوردته الآيات فيما بعد، وإنما وصف بالذكر ـ والله أعلم ـ؛لأنه من لدن الحق سبحانه وتعالي . ليعلم به سيدنا موسى عليه السلام ، ويعلمنا من بعده ، إذ تروي الآيات على

لسان الخضر عليه السلام:﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ الكهف : ٨٢.

ومن ثمَّ فإن الفعل (أحدث) يشير إلي تحدث لم يبدأ بعد ، وحديث منتظر، ووجه الإعجاز في استخدام الفعل (أحدث) أنه يرتبط بحدثين هما :إحداث الذكر باللسان من لدن الخضر ــ عليه السلام ــ فيما يفسر به، وإحداث الذكر بالقلب من لدن موسى ــ عليه السلام ــ بعد أن يطلع علي حقيقة الأمر لذلك فإن صيغة (يتحدث) أو (أتحدث) لا تفي بهذا المعني، الذي جسده الفعل (أحدث) والله أعلم .

٢ ــ وردت صيغة (يُحْدِث) في القرآن الكريم في موضعين هما :ــ

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ طه : ١١٣.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ الطلاق : ١.

فالفعل (يحدث) بمعني الحدوث، ولا علاقة له بالتحدث أو الحديث، فهو في الآية الأولي بمعني: إحداث الطاعة وفعل القربات، وفي الثانية بمعني: إحداث الرجعة ، أي عودة المطلقة إلي زوجها .

ثانيًا : الصيغ الاسمية التي تعبر عن الحديث .

قلنا: إن الحديث هو نتاج عملية التحدث، والحديث دائما هو الذي يوصف بالحسن أو بالقبح وليس التحدث، فالتحدث أداء، والحديث نتيجة هذا الأداء .

وقد وردت كلمة (الحديث) في ثمانية وعشرين موضعًا من القرآن الكريم، بيانها كالتالي :ـ

أ ـ وردت كلمة (حديث) في ثلاثة مواضع بمعني الكلام العام ، الذي يتحدث به الناس، وهي قوله تعالي :ـ

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ النساء : ١٤٠.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ الأنعام : ٦٨.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ الأحزاب: ٥٣ .

ب ـ وردت كلمة (حديث) في عشرة مواضع من القرآن الكريم، بمعني الكلام الخاص، الذي تحدث به القرآن (أشار إليه)، ثم يتحدث به الناس مرتبطًا بالظروف التي ورد فيها، كأن يكون الحديث خبرًا عن واقعة ما، أو ورد على لسان متحدث بعينه، أو ردد، أو سيردد في موقف بعينه، أو يكون حديثًا ذا صفات خاصة المهم كلها أخبار أوردها القرآن الكريم للعظة والاعتبار .

١ــ مما ورد خبرًا عن واقعة ما :ــ

قوله تعالي :﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ النازعات : ١٥ : ١٦.

وقوله:﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴾ البروج : ١٧.

وقوله:﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ الغاشية : ١.

فكلمة (حديث) هنا تعني (خبر)، وإنما عبر عنه بالحديث؛ لأن الخبر ما هو إلا حديث يتناول بين مستمعيه ، وفي المعجم (الحديث : الخبر قليله وكثيره).

٢ــ ومما ورد مرتبطًا بمتحدث بعينه، فهو له، ويروي عنه، وذلك في قوله تعالي :﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ طه : ٩ : ١٠.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ الذاريات : ٢٤.

٣ ــ ومما ورد مرتبطًا بموقف بعينه ، سواء حدث أو سيحدث، قوله تعالي :ــ

﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾ النساء : ٤٢

﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾النساء: ٧٨.

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا ﴾ التحريم : ٣.

٤ــ ومما ورد يشير إلي حديث ذي صفات خاصة، وذلك في قوله تعالي :ــ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف١١١.

قوله تعالى:﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء : ٨٧.

فكلمة (حديث) في الآية الأولي الحديث بمعنى القصص ، وفي الثانية بمعنى الوعد والوعيد والأخبار بهما .

وكذلك وردت في قوله تعالي :ــ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لقمان: ٦.

والحديث هنا هو حديث اللهو والعبث .

ج ــ وردت كلمة (الحديث) لتشير إلي القرآن الكريم ، وهو خير الحديث والكلم، وذلك في ستة مواضع هي :ــ

١ــ قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾.الكهف :١٦

٢ــ قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ الزمر : ٢٣.

٣ـ قوله تعالى:﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾.

٤ـ قوله تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ الواقعة : ٨١.

٥ـ قوله تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ القلم : ٤٤.

٦ـ قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴾ الطور : ٣٤.

دـ وردت كلمة (الحديث) لتشير إلي كلام خاص ، يرتبط بقضية الإيمان والتصديق، وذلك في أربعة مواضع، هي:ـ

ـ قوله تعالي: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ الجاثية : ٦.

ـ قوله تعالي: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف : ١٨٥.

ـ قوله تعالي : ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ المرسلات : ٥٠.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾.

هـ وردت كلمة (أحاديث) وهي جمع حديث في خمسة مواضع من القرآن الكريم. فجاءت بمعني الرؤيا ـ ما يراه النائم ـ في ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ يوسف : ٦، ٢١ ، ١٠١.

أي أن الله سبحانه وهب يوسف (عليه السلام) القدرة علي تفسير الرؤيا .

والرؤيا في حقيقتها ما هي إلا حديث ، فهي رؤيا بالنسبة لشخص واحد فقط هو من رأى، أما بالنسبة لمن يسمعها ، ومن يفسرها ، فهي حديث .

ـ وجاءت بمعني (العبرة والعظة) في قوله سبحانه :ـ

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ المؤمنون : ٤٤.

وقوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ ﴾ سبا : ١٩.

فالأحاديث هنا مقصود بها حديث العبرة والعظة، أي جعلناهم أحاديث للناس يتسامرون بها ، ويتحدثون عن أخبارهم ، وما فعل بهم .

تبقي الإشارة إلي صيغة (مُحْدث) التي وردت في موضعين من القـرآن الكريم، إلا أنها لا علاقة لها بالحديث أو التحدث، وهذان الموضعان هما :ـ

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الأنبياء: ٢.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ الشعراء : ٥.

فمحدث في الآيتين تعنى الحداثة، أي حديث العهد، وجديد .

تعقيب على التحدث

١ــ يلاحظ قلة صيغ الأفعال التى تشير إلي التحدث، وارتباطها بسياقات خبرية، أي تفيد الإخبار عن مواقف تحدث بعينها، وفي ذلك إشارة إلي أنه ينبغي علي الإنسان الإقلال من حديثه عن النحو الذي أوضحناه أنفا، فلا يتحدث إلا فيما يعود عليه وعلى غيره بالنفع والفائدة، وهذا ما دعا إليه الأدب الإسلامي في كثير من التوجيهات القويمة، التي حث عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية .

٢ــ أن كلمة " الحديث " الاسم ــ وهو نتاج عملية التحدث ــ وردت بصورة أكثر تكرارًا من صيغ الأفعال، ولكنها مع ذلك وردت في سياقات جُلها خبري، للإخبار عن مواقف خاصة من شأنها أن تحمل المتلقي علي الاتعاظ والامتثال والاستجابة لكلام الحق سبحانه، وفي ذلك إشارة إلى أن " الحديث "، أي حديث لا قيمة له إلا بقدر ما يتضمنه من العظة والاعتبار .

٣ــ أن صيغة الفعل المضارع من " التحدث " وردت في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم هي البقرة :٧٦ ، والكهف :٧٠ ، والزلزلة: ٠٤ وهي لم تفد التجدد والحدوث في الزمن الحاضر إلا في آية البقرة ،وجاءت في سياق استنكار اليهود علي بعضهم تحدثهم مع المؤمنين بما أنزل الله في التوراة . أما في آيتي الكهف والزلزلة فإن السياق يشير إلى أن التحدث لم يحدث بعد، وإنما سوف يحدث أي أن التجدد والحدوث والاستمرار الذى تشير إليها صيغة المضارعة، مقيد بالزمن الذي يشير إليه السياق، هذا فضلا عن أن مضمون الحديث في الآيتين مقيد وليس مطلقًا، فهو الذكر في آية الكهف وإخبار الإنسان عن الأرض في آية الزلزلة، وفي ذلك إيحاء بأن الإنسان ينبغي ألا يطلق العنان للسانه، فيتحدث في أي شيء، وعن كل شيء، وفي أي زمان وفي كل مكان، بل

ينبغي أن يكون حديثه ذكرًا، أو حملاً لمستمعيه علي طاعة الله، أو دعوتهم إلي التقوى والاتعاظ .

٤ـ لم يرد أي فعل ماضٍ يشير إلي التحدث، وهذا أمر له دلالته، وقد يرجع إلي كون التحدث عملية مباشرة، وحاضرة ومتبادلة، والأولي الإشارة إليها بالحال ـ المضارعة ـ دون الماضي، كما هو وارد في كتاب الله .

٥ـ يخرج الحديث عن معناه اللغوي المتصل بالكلام إلي معنى الحدث، أي إحداث الشيء وإلي معني الحداثة والجدة .

٦ـ الحديث له معني نفسى آخر وهو الرؤيا، وذلك إذا سبق بكلمة تأويل، كما أنه سبيل للاتعاظ والاعتبار والذكري إذا كان حكاية عن قوم كفروا بأنعم الله، وتناقلت الأمم أخبارهم .

٧ـ هناك أنماط متنوعة للحديث فهناك الحديث العام، والحديث المحدد ـ الخاص ، وهناك أفضل الأحاديث وأزكاها وهو القرآن الكريم .

وهكذا فإن ما عرضنا له من تأصيل نظري للتحدث، ثم تناوله في القرآن الكريم، يقودنا إلي تناول الفن اللغوي الثالث وهو القراءة، وهذا ما يعرض له الفصل الثالث .

الفصل الثالث

١ ـ مقدمـــــــــــة .

٢ ـ مفهوم القـــــــراءة .

٣ ـ نوعا القـــــــراءة .

٤ ـ لماذا نقـــــــرأ ؟ .

٥ ـ أهمية القـــــــراءة .

٦ ـ كيف تكن قارئًا جيـدًا ؟ .

٧ ـ القراءة كما عبر عنها القرآن الكريم .

يبدأ هذا الفصل بتحديد مفهوم القراءة لغة واصطلاحًا، وذلك حتى نقف علي دلالة الكلمة (القراءة) بوصفها مصطلحًا .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف عملية القراءة، وما تتضمنه من مهارات، وعمليات عقلية، وفسيولوجية يحدثها القارئ، وهو يمارس القراءة .

ونظرًا لأن القراءة تمارس إما جهرًا، وإما صامته، فقد ألقي هذا الفصل الضوء علي كل نوع منهما مبينًا ما يتضمنه من عمليات، وما يميزه عن الآخر من مميزات ولكونها تمارس لأغراض متعددة فقد قدم هذا الفصل وصفا لها ثم ألقي الضوء بشيء من التفصيل علي غرضين جامعين لكل أغراض القراءة وهما القراءة لدراسة العمل، وقراءة الاستمتاع .

واستكمالاً لتحديد الأبعاد الفنية لفن القراءة تناول هذا الفصل أهمية القراءة، مبرزًا دورها في حياة الفرد والمجتمع، وتواصل الأجيال، وازدهار الثقافة الإسلامية ثم قدم الفصل بعد ذلك بيانًا بما يجب أن يراعيه كل من يمارس القراءة، حيث يتحقق له أكبر قدر من الفائدة .

وبعد ذلك تتجه الدراسة في هذا الفصل إلى استقراء الملامح القرآنية لفن القراءة من خلال حصر الصيغ اللغوية التي تعبر عن القراءة في القرآن الكريم، وتوضيح دلالاتها التفسيرية، ومتضمناتها .

مقدمة

القراءة هي الفن اللغوي الثالث، من حيث ظهوره في ساحة الممارسة اللغوية، فالإنسان لا يتعلم القراءة ولا يستطيع أن يمارسها قبل أن يتحدث، فهو يمضي شطر طفولته تقريبا مستمعًا ثم متحدثًا، بعد أن تنمو لديه أعضاء النطق، ثم يبدأ في تعلم القراءة منذ بدء دخوله المدرسة أي في سن السادسة تقريبًا، ويمكن القول: إن القراءة من مجالات النشاط اللغوي التي تؤدى دورًا أساسيًا وجوهريًا في حياة الأفراد والمجتمعات فهي من أهم وسائل اكتساب المعرفة والتثقيف وإشباع الحاجات، وتنمية الفكر، وإثراء الخبرات، كما أنها وسيلة أساسية للنهوض بالمجتمع، والربط بين أجزائه عن طريق وسائل الإعلام المقروءة والرسائل، والمؤلفات التي تحمل فكر بعض أبناء المجتمع الآخرين وهي فضلا عن ذلك إحدي وسائل التعبد، والتقرب إلي الله سبحانه وتعالي، وذلك عن طريق قراءة القرآن الكريم ؛وتدبر آياته ومعانيه وقراءة أحاديث الرسول الكريم (ﷺ) وتدبرها، وهي كذلك مدخل لتعلم علوم الدين والتبحر فيها بعد ذلك، وقد خلق الحق سبحانه الإنسان وهيأ له أسباب القراءة إذ جعل له عينين ولسانًا وشفتين وجهازًا صوتيًا كاملاً، وعقلاً يترجم، ويفسر، ويحلل، ويستنتج وما علي الإنسان بعد ذلك إلا أن يسعى إلي تعلمها ثم ممارستها، حتى يتعرف علي ما يحتمل في المجتمع من حوله من فكر وثقافة لا سبيل إلي الإلمام بها إلا القراءة فيصبح بذلك عضوًا فعالا في المجتمع متفاعلاً معه، ومنفعلاً بما يدور حوله وبما يحدث فيه، وغني عن القول إن القراءة ليست مجرد عملية آلية يقوم بها الإنسان، بل هي نشاط عقلي قوامه التفكير بكل ما يتضمنه من عمليات عقلية تجري في العقل، لفهم المقرؤ، وهنا تبرز الحاجة إلى أن نعرض بشيء من التفصيل لمفهوم القراءة لغة واصطلاحًا وهذا ما تتناوله النقطة التالية:ـ

أولاً : مفهوم القراءة :

بوسع المرء أن يسأل نفسه, أو يسأله غيره ... ما القراءة ؟

وسؤال كهذا لو ألقي على جمع من الناس لتباينت إجاباتهم عنه ,ولوجدت من تعريفات القراءة ما لا يمكن أن ترفضه, ولايمكن أن تقبله, إذا ما كنت تعني التحديد الدقيق لمفهوم القراءة.

فسوف تجد من يقول لك:إن القراءة تعني الحصول علي المعلومات من مصادر المعرفة المكتوبة, ومن يقول: إنها القدرة على نطق الكلمة المطبوعة أو المكتوبة وفهمها ومن يقول: إنها تفسير العلامات والحروف وتحديد معانيها, ومن يقول: إنها استقبال أفكار المؤلف وانطباعاته عن طريق الكلمة المطبوعة. والحق أن تعدد التعريفات عند الناس للقراءة إنما يشير إلي أنها ليست عملية بسيطة, بل هي عملية معقدة ,فكل ما تقدم يدخل في عملية القراءة, بينما لا يصلح احد هذه التعريفات ليعبر عن مفهوم القراءة .. فما القراءة إذن ؟ .

إن لكل كلمة أصلا في الإستعمال اللغوي,وهو الذي يرشحها غالبًا للتعبير عن المعنى الاصطلاحي الذي تشير إليه إذا ما استخدمت الكلمة استخداما اصطلاحيًا، كأن تكون مصطلحًا علميًا, أو اجتماعيًا, أو سياسيًا, وما إلي ذلك.

فماذا عن المعني اللغوي للقراءة ؟.

ـ أورد (لسان العرب) أربعة معان للقراءة , نوردها فيما يلي :-

١-قرأت الشيء قرآنًا :جمعته, وضممت بعضه إلي بعض, ومنه قولهم : ما قرأت هذه الناقة جنينا قط, أي لم ينضم رحمها علي جنين (علي أحد الأوجه) وقال ابن الأثير عن القراءة: الأصل في هذه اللفظة الجمع, وكل شيء جمعته فقد قرأته, وسُمي القرآن, لأنه جمع القصص, والأمر والنهي, والوعد والوعيد,

والآيات والسور بعضها إلي بعض .

٢- قرأت القرآن :لفظت به مجموعًا. أي ألقيته .

وقيل:لم تقرأ الناقة جنينًا: أي لم تلقه (على الوجه الآخر لاستخدام هذا التعبير).

٣ـ قرأت : تفقهت، وتقرأ: تفقه.

٤- قرأ عليه السلام، يقرؤه عليه، وأقرأه إياه، :أبلغه، وفي الحديث :إن الرب عز وجل يقرئك السلام " ويقال: أقرئ فلانا السلام، واقرأ عليه السلام .

ولنعد قراءة المعاني السابقة، لنتعرف على علاقتها بما يتضمنه المعني الإصطلاحى للقراءة بوصفها فنًا لغويًا .

فالمعني الأول يشير إلي أنها الجمع، وضم بعض الشيء إلي بعضه. وهذا المعني مهم جدًا في النظر إلي القراءة بوصفها مصطلحًا يشير إلي فن لغوي, فالإنسان وهو يقرأ إنما يجمع الحروف مع بعضها لتكوين كلمات ويجمع الكلمات لتكوين جمل، ويجمع الجمل لتكوين فقرة, وهكذا ..

أما المعني الثاني فيشمل عنصرًا رئيسيًا من عناصر القراءة. وهو التلفظ ، والإلقاء، فذلك جوهر القراءة الجهرية .

والمعني الثالث وهو التفقه، أي الفهم. فلا يمكن أن يقال: إن هناك قراءة بدونه أما المعني الأخير، وهو الإبلاغ، فهو متضمن في القراءة الجهرية .ألست تري انك، وأنت تقرأ جهرًا، إنما تبلغ مضمون ما تقرأ لمن يستمع إليك.

فضلا عما تقدم فإن القراءة بوصفها فنًا لغويًا تتضمن من التعرف على حروف الكتابة، والتمييز البصري بينها، ومن ثمَّ فلابد للقارئ من الإلمام بهذه الحروف، وأشكالها المختلفة .

وتتضمن القراءة القدرة على الربط بين الحروف, والأصوات اللغوية التي تعبر عنها، والتلفظ بها، أي نطقها صامتًا، أو إلقائها جهرًا .

وتشير القراءة بوصفها فنًا لغويًا إلي نشاط عقلي يتمثل في تجميع الرموز المكتوبة, لتكوين وحدات لغوية ذات معني, وتفسيرها, والربط بينها وبين الخبرة الشخصية, وفهمها، كما أنها تشير إلي ما يحدث بين القارئ والمقرؤ من تفاعل, بحيث لا يكون القارئ سلبيًا تجاه ما يقرأ, وإنما يتمثلهُ في ضوء خلفياته, وثقافته, ويضفي عليه من ذاته ما يجعله عنصرًا إيجابيا في استقباله ومشاركًا للكاتب في فكره, وشعوره.

والقراءة أيضًا بوصفها فنًا لغويًا تشير إلي أبعد من ذلك, حيث تتضمن انفعال القارئ بما يقرأ, وتذوقه, والإحساس بما يتضمنه من جمال التعبير والصياغة، وتتضمن القراءة كذلك القدرة علي تحقيق الفائدة من المقرؤ، وذلك باستخلاص ما يمكن أن يفيد به القارئ في حياته العامة والخاصة .

وفضلاً عن كل ما تقدم فإن القراءة بوصفها فنًا لغويًا تتضمن القدرة على نقل مضمون الرسالة اللغوية بالصوت إلى المستمعين, أي إبلاغهم بمحتوى الرسالة, وذلك في حالة القراءة الجهرية .

ومن ثمَّ فإنه يمكن القول بأن القراءة مصطلح يشير إلي فن لغوي, يمكن تعريفه علي النحو التالي :-

"عملية عقلية تعتمد علي بعض المهارات الحركية التى تمكن القارئ من التعرف على الرموز المكتوبة والنطق بها, وتتضمن نشاطًا عقليًا يتمثل في التمييز بين هذه الرموز,وتفسيرها, وربطها بالخبرة الشخصية, وفهمها, والتفاعل مع المقرؤ, وتذوقه, ونقده, ونقله إلي المستمعين جهرًا إذا لزم الأمر.

وهكذا يلاحظ أن القراءة معقدة, ومع ذلك فنحن نمارسها دون شعور بتعقدها بل دون وعي بما يحدث داخلنا, ونحن نقرأ, علي أن ما ينبغي التأكيد عليه أن حدوثها يتم من خلال خطوات معينة, نعرضها كلها فيما يلي : -

ثانيا : كيف تحدث القراءة ؟

عندما يجلس الإنسان ليقرأ, فانه يمسك بالصحيفة أو الكتاب بين يديه, وينهمك في القراءة, فإذا رايته يخيل إليك أنه هادئ, ساكن, لا يُحرك عضلة, ولا يبذل جهدًا وقد لا يدري القارئ نفسه أنه يبذل جهدًا شاقًا, يبلغ أضعاف ما يبذله من يقوم بالنشاط العقلي, في الفترة نفسها, الزمنية التي يمارس فيها القراءة , فماذا يحدث أثناء القراءة ؟ : ـ

١ـ يشعر الإنسان بالرغبة في القراءة , فيأتي بالكتاب الذي يريد قراءته, ويجلس في مكان ما, ثم يفتح الكتاب, وينظر فيه .

وهنا تحدث بعض العمليات الآلية, والاستجابات الفسيولوجية , تستجيب من خلالها الأعضاء والأجهزة المنوطة بذلك للرمز المكتوبة كما يلي ..

* تسقط الأشعة الضوئية المنبعثة من الصفحة التي أمامك علي عدسة العين, وأنت تحرك الرأس كلها أو العين جهة اليمين, أو جهة اليسار, لتستقبل الشعاع الصادر من الكلمة , أو الجملة التي تريد قراءتها .

* ثم تجمع العدسة هذه الأشعة لتقع على شبكية العين مكونه صورة مصغرة, ومقلوبة للكلمة أو الحرف .

* بعد ذلك تنتقل هذه الصورة المقلوبة إلي المخ عن طريق العصب البصري, حيث يتم وضعها, وتمييز لونها وحجمها .

* تحدث العين وقفات بين مجموعة من الكلمات للتعرف عليها, ويتفاوت الأفراد فيما بينهم في عدد الكلمات التي تتعرف عليها العين, وفي الوقت الذي تستغرقه في الوقفة الواحدة .

* وبين هذه الوقفات تحدث العين حركات رجعية كثيرة عند الانتقال بين مجموعة كلمات إلي أخري للتعرف عليها. وعند الارتداد من آخر السطر المقروء إلي أول السطر التالي .

* وبعد ذلك يبدأ العقل في وضع الترجمة المعنوية لهذه الرموز في ضوء الخبرة السابقة للقارئ وخلفياته الثقافية. وتفصيل ذلك في الخطوة التالية :-

وإذا أراد القارئ إن يقرأ جهرًا فان مركز النطق المتصل بمركز الإبصار في المخ يرسل إشارة إلي أعضاء النطق كي تخرج الترجمة التي وضعها العقل للرموز التي تستقبلها العين في قوالب لفظيه وأصوات تعبر عن معناها.

ـ وفي هذه الحالة – القراءة الجهرية – تزداد عدد وقفات العين, والحركات الرجعية, ويطول زمن الوقفة الواحدة .

ـ في الخطوة السابقة انتهت الحواس من عملها بتوصيل هذه الرموز الكتابية إلي المخ. وهنا تبدأ المرحلة الثانية لمعالجة هذه الرموز . وتمثل هذه المرحلة جانبًا مهما جدا في عملية القراءة , حيث إن الصفحة المطبوعة التي تتعامل معها الحواس لا تحمل معني في ذاتها, فهي مجرد حبر علي ورق, وإنما يأتي المعني من عقل القارئ. فبعد أن تصل الرموز الكتابية إلي المخ عن طريق العصب البصري, تحدث أولى العمليات العقلية التي أشير إليها في الخطوة السابقة، وهي عملية التعرف علي تلك الرموز، والنطق بها، حيث يتعرف العقل غلي هذه الرموز في ضوء المخزون الخبري اللغوي، وكلما كان ذلك المخزون كبيرا ومتنوعا حدثت عملية التعرف وسائر العمليات العقلية بعد ذلك في يسر .

والفكرة ببساطة أن كل ماعرفة الإنسان من قبل من الرموز اللغوية والأصوات والكلمات والتعبيرات مخزون في الذاكرة، وعندما يقف الإنسان أمام صفحة جديدة يقرؤها فإن الرموز اللغوية الموجودة في هذه الصفحة ما أن تصل إلى العقل حتى يبدأ في البحث عن أسماء هذه الرموز أو صفات تلك الأصوات.

ومعانيها ضمن ما يختزنه, فإذا رأى كلمة جديدة لم تمرعليه من قبل وقف إمامها برهة ,فمعناها ليس عنده,وإن كان قد تعرف علي حروفها, وأصواتها,ثم يبدأ في اتباع أساليب أخرى لمعرفة معناها .

وهذه العمليات تشبه تمامًا ما يحدث لو أنك رأيت شخصًا ما ولو مرة واحدة منذ سنوات ثم تصادف أن عُرضت عليك صورته في جريدة ,أو ما سواها فإنك سوف تتعرف عليه فورًا لأنك رأيته من قبل,أي إن صورته مختزنة في الذاكرة وبعد التعرف علي هذه الرموز يبدأ العقل في معالجتها لفهم معناها فيفسرها حيث يحدد مدلولاتها في ضوء المخزون الخبري اللغوي المتكون لديه فإن كانت كلمة جديدة, فإنه يحاول تفسيرها في ضوء السياق, فإن عجز فالمعجم, ويحاول أن يفسر علامات الترقيم المستخدمة في الكتابة ويصنف المعلومات وينظمها ويربط بين المعاني الشائعة في المادة المقروءة, ويحدد الأدلة التي يسوقها الكاتب ,ثم تحدث عملية تحليلية يحاول العقل من خلالها إن يحدد هدف الكاتب والأفكار الرئيسية والفرعية لما يقرأ, والتفاصيل المهمة فيه, ويدرك العلاقات بين أجزاء المادة المقروءة ,ويتعرف علي وجهة نظر الكاتب,ويفسر المعاني الضمنية,ويفسر تنظيم الكتابة من حيث تقديم الكاتب, وشروحه, وتفسيراته وتسلسل الكتابة, وترتيب الفقرات ,ويميز بين وثيق الصلة بالموضوع وغير وثيق الصلة به ..

ثم تحدث بعض العمليات العقلية الأخرى التي تعين القارئ علي تذوق المادة المقروءة, حيث يحدد العواطف التي يعبر عنها الكاتب, ويحلل اللغة المجازية, ويفسر الصور التي توحي بها الكلمات ,ويحدد أحاسيس الكاتب ,ويتفاعل مع كل ذلك وينفعل به .

وفضلاً عن كل ما تقدم تحدث بعض العمليات العقلية الأخرى التى من خلالها يمكن للقارئ أن ينقد المقرؤ ويحكم عليه, حيث يميز بين الحقيقة والرأي ,ويزن الحقائق وفق أهميتها, ويحلل رأى الكاتب, ويحدد دوافعه, ويحدد الغث من الثمين فيما يقرؤه,ويحدد مدى ارتباط المقرؤ بالحياة أو عدم ارتباطه ,ويحدد إمكانية الإفادة مما يقرأ,ويناقش آراء الكاتب ,ويبدي فيه .

وأخيرا يحاول القارئ أن يحدد الأفكار الحيوية والحقائق العامة التي يمكن أن تفيده في حياته العامة والخاصة .

وبعد, فهذه العمليات التي تحدث منذ أن يمسك الإنسان بالكتاب وينظر إلي صفحاته إلي أن ينتهي من القراءة ,وقد أفاد مما قرأ,كل هذه العمليات رغم كثرتها وتنوعها تحدث متزامنة ومتداخلة بصورة لا يمكن فصلها على النحو الذي أوردناها به,وإنما أوردناها كذلك للإيضاح والتفسير .

وتحدث هذه العمليات فى وقت قصير جدًا, إذا ما قيس بكثرتها وتنوعها، ووقت حدوثها هو المدة الزمنية التي تستغرقها العين في الوقفة الواحدة بين مجموعة من الكلمات .

وفي ضوء هذا الفهم للقراءة والعمليات التي تحدث من خلالها فإنه يمكن بسهولة أن نفهم طبيعة الخطأ في القراءة .

فقد يكون سبب الخطأ فسيولوجيا ,بمعني أن تكون العين أو أحد الأعضاء التي لها علاقة بالاستقبال الحاسي للرموز المكتوبة به عطل مما يؤثر علي استقبال هذه الرموز, وهنا يزول الخطأ بمجرد العلاج الطبي لهذا العطل،أو استعمال النظارات الطبية ،أو غير ذلك مما يرى من وسائل العلاج مع ملاحظة أنه إذا كان الخطأ راجعًا إلي سبب فسيولوجي.فإنه سوف يترتب عليه بالضرورة أخطاء في المعالجة العقلية للغة المستقبلة .

وقد يرجع الخطأ إلي عدم قدرة القارئ على التعرف، على هـذه الرمـوز التي يقرؤها وهنا يكون الخلل في المحصول اللغوي، وفقر الخبرة باللغـة هـو السبب الرئيس، أي أن تلك الكلمة التي لم يتعرف عليها، ليسـت في مخـزونه الخبري، وهنا يمكن أن تزول المشكلة إذا ما عرفنا القارئ بالكلمة ومعناها .

وقد يرجع الخطأ إلي أسباب تتعلق بفهم المقروء، كأن يعجز القارئ عـن تفسير المقروء أو تحليله، وهذا يشير إلى عدم تمكنه من المهـارات الخاصـة بذلك، وحاجته إلى التدريب عليها، وكثرة ممارسة القراءة .

والحقيقة أن كل مشكلات القراءة، مادامت بعيدة عن النواحي الفسيولوجية، وغير مرتبطة بتأخر عقلي، فإنه يمكن التغلب عليهـا عـن طريـق التـدريب والممارسة .

وتحدث عملية القراءة، على النحو الذي وصفناه من خلال شكلين لـلأداء، هما: ـ القراءة الصامتة، والجهرية، وفيما يلي توضيح لكل منهما.

ثالثًا : نوعا القراءة :

١ــ القراءة الصامتة :

تتمثل القراءة الصامتة في عملية التعرف،علي الرموزالمكتوبة وتفسيرها، وفهم معانيها دون صوت، أو همهمة، أو تحريك شفاه، حيث لا يمثل عنصر الصوت أي أهمية في القراءة الصامتة.

وتعتمد القراءة الصامتة على عنصرين، أو لهما: القراءة بالعين، أي مجرد النظر إلى الرموز المكتوبة، أما العنصر الآخر: فيتمثل في ذلك النشاط العقلي الذي يترتب علي رؤية هذه الرموز، بما يتضمنه من عمليات عقلية لتفسير هذه الرموز وفهمها، وفي القراءة الصامتة يفسر القارئ تلك الرموز الكتابية لنفسه فقط، معتمدا علي ما لديه من قدرات وخبرات، ويتحدد معدل القراءة هنا بقدرته علي فهم معني المقروء .

والقراءة الصامتة تعين القارئ علي فهم ما يقرأ، وتوفر وقته، فيمكن للإنسان أن يقرأ في ساعة من القراءة الصامتة أضعاف ما يمكن أن يقرأه جهرا مع فهم أكثر وضوحًا حيث تكون عناية القارئ مركزة حول تفسير الرموز وفهم معانيها.

والجهد الذي يبذله القارئ في القراءة الصامتة أقل من ذلك الذي يبذله في القراءة الجهرية. حيث يستبعد ــ من القراءة الصامتة ــ الجهد العقلي والعضلي الذي يبذله القارئ في ترجمة الرموز الكتابية إلى أصوات لغوية، والنطق بها، والجهد الناتج عن عملية الإلقاء .

والقراءة الصامتة هي الشكل الأكثر شيوعًا بين النـــاس فـــي ممارســتهم القراءة، حيث تتسع مواقف استخدامها لتشمل معظم المواقف التي تمارس فيها القراءة .

٢ ــ القراءة الجهرية :

القراءة الجهرية هي عملية ترجمة الرموز الكتابية إلي أصوات لغوية تعبر عن معني هذه الرموز. وتقتضي القراءة الجهرية تحريك العضلات المـــستخدمة في إصدار الأصوات، ويمثل ذلك جهدًا زائدًا يبذله القارئ عما يحدث في القراءة الصامتة .

وتعتمد القراءة الجهرية على ثلاثة عناصر رئيسة :

أولها: رؤية الرموز المكتوبة والتمييز البصري بينها .

وثانيها : النشاط العقلي الذي يحدثه القارئ لتفسير هـــذه الرمـــوز وفهمهـــا، وهذان العنصران يحدثان بالاسلوب نفسه، في القراءة الصامتة أما مـــا يميـــز القراءة الجهرية، فهو العنصر.

الثالث : الذي يتمثل في إنتاج الأصوات اللغوية التي تعبر عن معني المكتوب .

وتقتضي القراءة الجهرية سلامة النطق من حيث إخراج الأصـــوات مـــن مخارجها الصحيحة، والتمييز بين هذه المخارج، وصفات الأصوات مـــن حيـــث الشدة والرخاوة والجهر والهمس، والتفخيم والترقيق .

وتتطلب القراءة الجهرية مراعاة الضبط النحوي لأواخر الكلمات والمحافظة علي البنية الصوتية للكلمات، حيث إن أي خطأ في ضبط بنية الكلمة أو ضـــبط آخرها قد يغير معني الكلمة تمامًا، وبالتالي يغير مضمون الرسالة ككل .

وتتطلب القراءة الجهرية ــ كذلك ــ جودة الإلقاء وتمثيل المعني، والتعبير عن أحاسيس الكاتب وانفعالاته، حيث إن القارئ عندما يقرأ جهرًا فإنمـــا ينقـــل

مضمون ما يقرأ إلي المستمعين، أي أن القراءة هنا تكون فنًا استقباليًا تعبيريًا في الوقت نفسه، فالقارئ يستقبل الرسالة المكتوبة لنفسه، ثم يعبر عنها للآخرين .

والقراءة الجهرية أصعب أداء، وأبطأ من الصامتة، حيث يبذل القارئ فيها جهدًا مزدوجًا، إذ يراعى ـ فضلاً عن فهم المعني ـ قواعد النطق والأداء الصوتي مثل: إخراج الحروف من مخارجها، وضبط بنية الكلمة وآخرها، والأداء التمثيلي للمعني .

وفي القراءة الجهرية تكثر وقفات العين، وترددانها، لذلك فهي تستغرق وقتًا أطول مما تستغرقه القراءة الصامتة، ومن ثمَّ فإن معدل القراءة الجهرية يتحدد بالزمن المستغرق في النطق .

رابعًا : لماذا نقرأ ؟.

تتعدد إجابات الناس عن هذا السؤال بتعدد الأغراض التي تُمارس القراءة من أجلها، فنحن نقرأ لأغراض كثيرة ومتنوعة .

وتجدر الإشارة إلي أن التغير في الغرض الذي تُمارس القراءة من أجله يؤدي فروقًا في العمليات العقلية التي تتضمنها القراءة .

فالإنسان قد يقرأ، ليحل مشكلة عرضت له في حياته الخاصة أوالعامة، وهنا يحاول أن يبحث عن كل ما يتصل بهذه المشكلة في كل ما يقرأ، فيجري الإنسان عمليات تحليلية، واستنتاجية، ويربط بين الحقائق، وبين ما يقرأ ومشكلته، ويستنبط مما يقرأ حتى يصل إلي حل مُرضٍ لمشكلته .

وقد يقرأ الإنسان بغرض التعرف علي التسلسل الزمني لمجموعة من الإحداث أوالمواقف، وتتابعها، ومن ثمّ فهو يتتبع التفاصيل، ويتعرف على ترتيبها، ويربط بين المقدمات والنتائج، ويربط بين الأحداث والمواقف .

وقد يقرأ الإنسان لتكوين فكرة عامة عن موضوع ما في وقت قصير، وهنا يلجأ إلى استعراض الموضوع كله سواء أكان كتابًا، أم مقالاً في صحيفة، أم غير ذلك مما تشير إلي معني الفقرة، أو المقدمة، أو الملخص الذي يورده الكاتب في نهاية الموضوع، وقد يتوقف قليلاً عن بعض الرسوم التوضيحية التي قد يستعين بها الكاتب .

وقد يقرأ الإنسان بغرض جمع المعلومات حول فكرة ما أو موضوع بعينة، وهنا يتوقف القارئ عند المادة التي يجدها متصلة بموضوعه، أو فكرته، فيحللها، ويربط بينها وبين موضوعه، ويستخلص منها ما يمكن أن يفيده .

وقد يقرأ الإنسان للبحث عن رقم معين، أو تاريخ ما، أو كلمة بعينها كما يحدث في استخدام فهارس الكتب، والمعاجم اللغوية، ودليل التليفون وما شابه ذلك، وهنا يكتفي القارئ بتصفح الكتاب الذي بين يديه، وصولاً إلي ما يبحث عنه، فهو في حالة تصفح دائم، قد تستوقفه أشياء لم يكن يبحث عنها، وقد لا يستوقفه إلا ما يبحث عنه .

وقد يمارس الإنسان القراءة بغرض الاستمتاع ، فيقرأ طُرفة أو نادرة أو قصة، أو قصيدة، وما إلي ذلك، وهنا يكون القارئ مهيئًا للاستجابات الانفعالية لما يقرأ، حيث ينفعل به، ويستغرق في تحليل اللغة المجازية، وتحديد إيحاءاتها وتخيل ما توحي به الكلمات والتراكيب، وتتبع خيال الكاتب وتفسيره، والانفعال بانفعالاته .

وقد يقرأ الإنسان لا تباع تعليمات معينة كأن يقرأ اللوحات التي تحمل أسماء الشوارع إذا كان يبحث عن عنوان، أو اللوحات الإرشادية التي تحدد له طريقة السير والتحرك في مكان ما، أو تعرفه بالمكان ومتضمناته .

وهكذا تتعدد الأغراض التي تمارس القراءة من أجلها وتتنوع، ويرتبط هذا التعدد، وذاك التنوع بالمواقف التي تمارس فيها، والمادة المقروءة، والتباين بين الأفراد أنفسهم، ومهما يكن هذا التنوع فإنه يمكن إرجاعه إلي غرضين رئيسين يمارس الإنسان القراءة من أجلهما، فنحن نقرأ عادة إما لدراسة ما، وإما للاستمتاع وقضاء أوقات الفراغ .

ومن ثمَّ فهناك نوعان أساسيان للقراءة تمارس من خلال أحدهما مهما كان الموضوع الذي يقرأ، وأيا كان موضعه، في كتاب، أو في صحيفة، أو في وثيقة ... إلخ وأيًا كان المجال الذي ينتمي إليه الموضوع، سواء أكان علميا أم سياسيا أم دينيا، أم جغرافيًا، أم تاريخيًا أم أدبيًا .... إلخ .

هذان النوعان هما: القراءة لدراسة العمل، والقراءة للاستمتاع وسنعرض لكل واحد منهما بشيء من التفصيل فيما يلي :ـ

١ـ القراءة لدراسة العمل :

يمارس الإنسان هذا النوع من القراءة في العادة عندما يكون الغرض متصلاً بالبحث عن معلومات واكتسابها، أو التعرف على مجال معرفي جديد، أو دراسة حقائق جديدة في تخصص القارئ، أو في غير مجال تخصصه، أو دراسة عمل أدبي، أو فني، أو دراسة كتاب بعينه، أو مؤلف بعينه، أو موضوع يقع في مجال الاهتمام .

وهنا يقرأ الإنسان الموضوع الذي يدرسه حريصًا على كل كلمة ، وكل رمز، أو إشارة من شأنها أن تزيد من فهمه للموضوع، ويفسر القارئ، ويحلل، ويستنتج، ويصنف المعلومات، ويستخرج الحقائق، ويفسر ما ساقه الكاتب من رسوم، وجداول، وخرائط توضيحية، ويأخذ مذكرات العمل، ويعمل ملخصًا، وينظم البيانات التي يقرؤها بالشكل الذي يعينه على فهمها .

وفي القراءة لدراسة العمل، أي عمل، يكون الغرض من القراءة دائما عمليًا، بمعني أن هذه القراءة ترتبط بأمور تتعلق بحياة الناس العملية، كأن يكون القارئ طالبًا يدرس في كتب بعينها، أو تخصص معين، أو باحثًا، مهنته الدراسة والتمحيص في كل ما يقع بين يديه من مواد مقروءة، أو يكون القارئ ممن مهنتهم في هذه الحياة القراءة ونشر الفكر والثقافة، كالكُتاب والمؤلفين، وأرباب الفكر في مختلف مجالاته، أو قد يكون القارئ ممن يعنون بأمور المال والتجارة والاقتصاد، أو السياسة، فهو يدرسها بعناية لحاجة في نفسه .

وقد يكون القارئ ـ كذلك ـ من رجال الدين يدرسون كتب الفقه والتفسير لينشروا تعاليم الدين بين الناس، أو يبحثون عن حكم ما في أكثر من مرجع

فقهي أو تفسيري .

وقد يكون القارئ فردًا عاديًا استثاره موضوع فأراد أن يدرسه ، فالقراءة لدراسة العمل ليست حكرًا على فئة دون أخري، فكل قادر على القراءة يمارسها، إذا ما كان للقراءة غرض عملي يتصل بحياته .

٢ ــ القراءة للاستمتاع :

عادة يرتبط هذا النوع من القراءة برغبة الإنسان في قضاء وقت فراغه، وفي وقت الفراغ، قد يجد الإنسان نفسه أمام أحد أمرين، فإما أن يشعر بثقل الواقع، ومرارته، وتتزاحم عليه همومه ومشاكله فينتابه شعور بالرغبة في الفرار من هذا الواقع المر، وتلك المشكلات التي يُمس فيها، ويُصبح، فيلجأ إلي نوع من المادة المقروءة يبعده عن واقعه، وينقله إلي عالم آخر من الخيال الساحر، والعواطف السامية، ويحمله علي أجنحة الخيال إلي عوالم أخري ترسمها الكلمات والتعبيرات التي يجدها القارئ في القصص العاطفية الرومانسية، والحكايات الوهمية التي ينسجها الخيال واللغة، والأساطير، وغير ذلك مما يتجاوز بالإنسان عالمه إلي دنيا الخيال .

وإما أن يجد الإنسان لديه رغبة في معرفة أشياء، أو التعرف على أشياء تتعلق بحياته أوحياة الإنسان بصفة عامة، أوحياة الطيور والحيوانات، أوالحشرات أوحياة القادة، والزعماء، والمفكرين، والفنانين، إلى غير ذلك مما يهوي الناس معرفته، وهنا يجد الإنسان نفسه مدفوعًا بحب الاستطلاع إلي قراءات من هذا النوع ليشغل بها فراغه .

وقد يجد بعض الناس لونًا آخر من الإثارة والصنعة في قراءة القصص البوليسية والاستغراق في معايشة أحداثها .

ومن الناس من يمضي وقت فراغه بتصفح جريدة، أو مجلة واجدا لونا من المتعة في قراءة أخبار الحوادث ، وقصص الجريمة .

وفي هذا النوع من القراءة يستجيب القارئ انفعاليًا لما يقرأ، وينفعل بـــه، ويتأثر عاطفيًا، وقد يبالغ بعض الناس في تأثرهم، فنجد حالات التقمص، وربما وجدت من يبكي تأثرًا بما يقرأ، ويحدث ذلك عادة بين النساء، وقد يبلغ التـــأثر بالمقروء ــ وخاصة لدي الأطفال ــ حد الحلم المرعب أثناء النوم، وإنما يرجع ذلك إلي أن القارئ وهو يمارس هذا النوع من القراءة، يسلم نفسه تماما لمـــا يقرأ، وعادة ما يكون مهيئًا نفسيًا لمثل هذه الأشياء .

وأخيرًا ... فإن القراءة سواء أكانت لدراسة العمل أم للاستمتاع، ومهمـــا كان الغرض من ممارستها، فهي وسيلة الإنسان للاستفادة، والتعلم، والمعرفة، والعمل، بل وسيلته لجلب المتعة، وإذكاء الخيال، وتهـــذيب الـــنفس، والـــسمو الروحي، ويمكن للإنسان أن يحقق كل ذلك في وقت واحد بقراءة كتاب واحد هو القرآن الكريم، بل ويمكن للإنسان أن يمارس كل أنـــواع القـــراءة ، بمختلـــف أغراضها في هذا الكتاب الكريم حتى ولو ختمه كل يوم مـــرة، أي قـــرأه كلـــه، فسوف يجد في كل مرة ما يستحق الدراسة، ويجلب لنفسه المتعة .

خامسًا : أهمية القراءة :

ليس من قبيل الصدفة أن يكون أول أمر صدر من السماء إلى الأرض هو (اقرأ) فهو أمر إلهي وجهه الحق سبحانه إلى رسوله الكريم (ﷺ) ليبلغه للناس جميعًا، أي أنه ليس موجهًا إلي شخص الرسول الكريم، بل هو أمر ملزم للمسلمين جميعًا، وذلك لما للقراءة من أهمية فيما يتصل بأمور الدين والدنيا فالقراءة وسيلة المسلم لتلاوة القرآن الكريم، وتدبر معانيه، وفهم الأحكام الواردة فيه وسبيله إلي معرفة الأدب النبوي متمثلاً فيما ورد من الحديث والسنة والتعرف علي سيَّر الأنبياء والصالحين ، والتفقه في الدين . ولو لم يكن للقراءة فضل إلا هذا لكفي .

وترجع أهمية القراءة ــ فضلاً عن ذلك ــ إلي كونها وسيلة الإنسان لاكتساب المعارف، والتثقيف الذاتي، فمن خلالها يستطيع الإنسان أن يحصل جميع أنواع المعرفة، ويتعلم ويدرس ويوسع دائرة ثقافته .

وعن طريق القراءة يستطيع الإنسان أن يتجاوز حدود الزمان والمكان الذي يعيش فيه حينما يطلع بالقراءة على حياة القدماء من خلال كتب التاريخ، أو يقرأ مؤلفات يباعد بينه وبين أصحابها بُعد المكان، فنحن نقرأ لمؤلفين مصريين وعرب من شتي الأقطار العربية، كما نقرأ لمؤلفين أجانب، وقد يمضي الإنسان حياته قارئًا لكاتب لم يره في حياته مرة واحدة، أو حتى يري صورته .

والقراءة وسيلة فعالة وجيدة لتواصل الأجيال، فنحن نقرأ لطه حسين، والعقاد، والحكيم، والمازني، والبارودي، وشوقي وغيرهم من جيل الرواد، بل ونقرأ للجاحظ، والزمخشري، والجرجاني، والمبرد وغيرهم من القدماء، وسيأتي من بعدنا جيل يقرأ لنا ولهؤلاء، وهكذا يستمر التواصل من خلال القراءة كما

أنها ـ القراءة ـــ وسيلة فعالة لتنمية ثروة الفرد من المفردات والتراكيب وتوسيع خبرته باللغة والارتقاء بأسلوبه في التعبير، من خلال ما يتلقاه الفرد عن طريق قراءاته المختلفة من كلمات جديدة، ومعان، وما يطلع عليه من أساليب في التعبير وصياغة الأفكار تتعمق خبرته باللغة، وأساليب استخدامها .

والقراءة كذلك وسيلة حيوية لملاحقة التطور العلمي والتكنولوجي الذي يميز عصرنا هذا، فالمعرفة تتزايد باستمرار، وكم المطبوعات التي تصدر كل يوم من الكثرة بحيث لا يمكن السيطرة عليه، ولا يمكن التكهن بما سوف يصبح عليه في المستقبل، والقراءة هي وسيلة الفرد لتحصيل ما يمكن تحصيله من هذه المعارف، وعن طريق القراءة الناقدة الممحصة يستطيع الإنسان الاختيار من بينها وترجع أهمية القراءة أيضا إلي سهولة ممارستها، وعدم تقيدها بمكان أو زمان، حيث يستطيع الإنسان أن يمارسها في بيته، وفي المكتبات العامة والمتخصصة وفي وسائل المواصلات، ويمارسها جالسًا، ومضطجعًا، وواقفًا، ويمارسها في النوادي، والمتنزهات، وغيرها من الأماكن التي قد يتردد عليها الإنسان .

والقراءة كذلك وسيلة متيسرة، لتنمية شخصية الإنسان وفكره ، وتهذيب مشاعره فكل فكرة جديدة ، أو معلومة يكتسبها الإنسان تضيف إلي بنيته الثقافية وخلفيته الفكرية لبنة جديدة تسهم بشكل آخر في تشكيل شخصيته وعقله.

والقراءة فضلاً عن كل ما تقدم وسيلة مفيدة لشغل أوقات الفراغ والاستمتاع والترويح عن النفس .

سادسًا : كيف تكون قارئًا جيدًا ؟.

القارئ الجيد هو الذي ينتقي ما يقرأ، ويحاول دائمًا الإفادة من كل ما يقرأ ليتعلم ويتعلم ليقرأ، وإن شئت عزيزي القارئ، أن تكون كذلك، فاقرأ جيدًا الفقرات التالية .

ـ حدد هدفك من القراءة قبل الشروع فيها، حتى ولو كنت تقرأ لشغل وقت الفراغ، فلتكن قراءتك موجهة نحو هدف؛ لأن تحقيق الهدف هو البداية المنطقية لأي عمل ناجح .

ـ ركز انتباهك جيدًا، فيما تقرأ، ولا تدع أي عامل من عوامل التشتت يؤثر عليك حتى لا تضطر إلي إعادة ما تقرؤه أكثر من مرة، وحتى لا تسبب لنفسك إرهاقا قد يصيبك بالملل من القراءة .

ـ اجلس في الوضع المريح حتى لا تسبب إجهادا لعضلات العين أثناء القراءة، فتشعر بالصداع بعد بدء القراءة بفترة قصيرة .

ـ ضع الكتاب أو الصحيفة التي تقرأ فيها علي بعد مناسب للعين، والمعروف أن أقصر مدي للرؤية الواضحة بالنسبة للعين السليمة هو ٢٥ سم، وإن قرب الكتاب أو بعده أكثر من اللازم عن العين يؤثر علي الرؤية الواضحة، ويسبب إجهادًا للعين .

ـ ليكن مكتبك ذا سطح مائل قليلاً للإمام، وإن لم يتيسر ذلك فليأخذ الكتاب الذي تقرأ فيه هذا الشكل المائل، ولا يجعل مصدر الضوء مواجها لعينيك أثناء القراءة كما أن تكرار ممارسة القراءة في الأوضاع غير الصحيحة يؤثر علي قوة الإبصار مع مرور الزمن .

ـ دقق كثيرًا في اختيارك لما تقرأ، لأنك باختيارك هذا تضيف إضافة جديدة إلى

فكرك، وعقلك، وثقافتك، وقيمك فلا تجعل هذه الإضافة لبنة فاسدة تفسد ذلك البناء الفكري ، وتشوه صورته .

ـ لا تقع تحت تأثير الكلمة المطبوعة، فليس كل ما يلمع ذهبًا كما يقال، بمعني أنك ينبغي أن تقف كثيرًا أمام ما تقرأ متأملاً، وناقدًا، ولا تسلم بأي شيء إلا إذا وافق العقل والمنطق ولم يناقض فطرة الله التي فطر الناس عليها .

ـ حاول أن تحدد الأفكار الرئيسة للموضوع الذي تقرؤه، حتى لا يضيع وقتك وجهدك في أشياء قد لا تفيدك كثيرًا .

ـ استفد من مفاتيح الكتابة في تتبع تفاصيل الموضوع، وهذه المفاتيح كلمات تقودك إلى معني جديد، أو فكرة جديدة، أو إضافة جديدة لما سبق، ومن هذه المفاتيح، والكلمات، والأرقام، والحروف الدالة علي العدد والتسلسل، وكلمات مثل: لأن، أي، بمعني آخر، فضلا عن إلي جانب، بسبب، من ثم، ما يلي، مما يأتي، إلي غير ذلك، من الكلمات التي يمكن أن تقودك إلي تفاصيل أكثر .

ـ لا تنتقل من فقرة إلي التي تليها إلا بعد أن تكون قد فهمت كل ما بها من مفردات ومعان، وأفكار واستخلصت ما يمكن أن يفيدك منها .

ـ إذا كنت تقرأ جهرًا لمجموعة من المستمعين، فنظم تنفسك، وأخرج الأصوات من مخارجها الصحيحة، وكيِّف صوتك بما يتناسب مع مساحة المكان وعدد المستمعين ولتكن وقفاتك أثناء القراءة عند تمام معني الجملة، وعند الوقفة يجب أن تسكن للتحرك، وتقلب تنوين الفتح ألفا، والتاء المربوطة هاء .

ثم يجب أن تعبر صوتيًا عن الاستفهام، والتعجب، والنفي، وأن تؤدي المعني أداء تمثيليا قدر استطاعتك حتى توفق في تبليغ المحتوي الذي تقرؤه لمستمعيك.

وبعد: فتلك أهم الأبعاد الفنية للقراءة بوصفها فنًا لغويًا، وفيما يلي نتعرف علي ما ورد في القرآن الكريم بشأن هذا الفن اللغوي من ملامح تزيد هذه الأبعاد وضوحًا، وتوجه ممارستنا القراءة بما يحقق صالح ديننا ودنيانا .

سابعًا: القراءة كما عبرعنها القرآن الكريم:

لم ترد كلمة (القراءة) في القرآن الكريم بنفس البنية الصرفية، والدلالة الاصطلاحية، وإنما ورد به من المشتقات ما يعبر عن مضمونها، ويشير إلي مدلولها، وفيما يلي بيان ذلك :

١ ــ الصيغ الفعلية :

وردت الصيغ الفعلية عن القراءة في القرآن الكريم سبع عشرة مرة ، منها ست صيغ للفعل الماضي، ومثلها للأمر، وخمس صيغ للفعل المضارع.

أ ــ الفعل الماضي: صيغة الفعل الماضي (قرأ) في أربعة مواضع من القرآن الكريم، ثم وردت الصيغة نفسها مبنية للمجهول في موضعين، وبذا يكون مجموعها (ست صيغ) :

والموضع الأول:ــ في قوله تعالي: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ النحل : ٩٨.

أما الموضع الثاني:ــ ففي قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ الإسراء : ٤٥.

وهنا يلاحظ أن صيغة الفعل (قرأ) تشير إلي الحدث الذي هو (القراءة)، لأن الحدث جزء من معناها، ولكن القراءة هنا قراءة خاصة بقارئ معين، هو الرسول الكريم (ﷺ)، والقرآن هو المفعول به فى الآيتين، أي الذي وقع عليه فعل القراءة، وإذا كان الخطاب موجهًا إلي الرسول (ﷺ) في الآية الأولي، فإن فعل الأمر بعده مُلزِم لكل من يقرأ القرآن، كما أن الأمر بالقراءة هنا جاء موجها

إلي الرسول الكريم وأمته، كما اشتملت الآية علي بعض آداب قراءة القرآن وكيفية البدء فيها .

وعلي الرغم من أن البنية الصرفية لصيغة (قرأ) في الآيتين تدل علي الزمن الماضي، فإن السياق النحوي الذي وردت فيه يشير إلي الزمن المستقبل، بمعني أنه لا يمكن القول هنا بأن (قرأ) تشير إلي حدث قد انتهي .

والقراءة، كما أشارت إليها الآيتان، ليست مجرد التلفظ أو الإلقاء، وإنما هي قراءة التأمل والتفكر والتدبر لمعاني القرآن، ومن ثمَّ جاء الأمر الرباني ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ في الآية الأولي: حتى لا يحول الشيطان بين قارئ القرآن وتدبر معانيه، وفي الآية الثانية: نجد أن الله سبحانه وتعالي جعل حجابًا مستورًا، أي ساترًا بين الذين لا يؤمنون بالآخرة، وتدبر معاني القرآن، فهم يسمعونه من الرسول الكريم (ﷺ) لكنهم لا يتدبرون معانيه، أي لا يفهمونه .

أما الموضع الثالث: ـ

ففي قوله تعالي:﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ القيامة : ١٨

والصيغة هنا (قرأ) تشير إلي أسلوب الأداء وكيفية قراءة القرآن ، ويتضح ذلك من قوله تعالي: ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أي اقرأ كما يُقرأ عليك مبلغ الوحي جبريل (عليه السلام) وواضح هنا أن القراءة عملية خاصة تمارس في مقروء ذي صفات خاصة من حيث التجويد والترتيل، وقراءة جبريل(عليه السلام) هي معيار الأداء.

وثمة توجيه نستوحيه من سياق الآية الكريمة هو أن الأمر بالاتباع وإن كان موجهًا إلي الرسول الكريم (ﷺ) فإنه مُلزم لكل من يقرأ القرآن بعده من

المسلمين وذلك لأن قراءة القرآن بأحكام تجويده تعتمد علي الأداء الصوتي، ويعتمد هذا الأداء الصوتي علي محاكاة نموذج، والنموذج في هذه الآية هو جبريل عليه السلام، أما فيما بعد ذلك، فقراءة الرسول (ﷺ)هي النموذج المثالي للصحابة، ثم تصبح قراءة الصحابة نموذجًا للتابعين وهكذا من جيل إلي جيل، وبذلك يكون القرآن الكريم قد بلغ إلي جميع المسلمين في كل زمان ومكان كما بلغ إلي الرسول (ﷺ) وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر : آية ٩.

ويلاحظ كذلك من سياق هذه الآية الكريمة أن صيغة (قرأ) رغم دلالتها علي الزمن الماضي فإنها تشير إلي الزمن المستقبل .

وأما الموضع الرابع:ـ ففي قوله تعالي: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾الشعراء : ١٩٨ ـ ١٩٩.

والصيغة (قرأ) هنا تشير إلي قراءة التبليغ، أي أن هؤلاء الأعجمين لو قرئ عليهم القرآن، أي بلغوا به فلن يؤمنوا، والتبليغ أحد المعاني المعجمية لهذه الصيغة، فضلا عن كونه الوظيفة التعبيرية للقراءة .

أما الموضعان اللذان وردت فيهما صيغة (قرأ) مبنية للمجهول فهما :

قوله تعالي:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

ـ وقوله سبحانه:﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ الانشقاق : ٢١.

ويلاحظ ـ في الآيتين الكريمتين ـ أن الحدث (القراءة) مقصود لذاته، فلم تشر الآيتان الكريمتان إلي قارئ بعينه، ومن ثمَّ فالقراءة هنا مطلقة، قد تقع من أي قارئ، ومع ذلك فالأمر بالاستماع والإنصات بعدها ـ في الآية الثانية ـ

من وصف لحال الكفار من عدم استجابتهم للقرآن الكريم بالسجود إعظاما واحتراما، فهو حال دائم، وثابت مع تغير قارئي القرآن الكريم، ومبلغيه وتعددهم.

ومن سياق الآيتين الكريمتين يتضح ـ كذلك ـ اختلاف دلالة الزمن من صيغة الفعل والسياق الذي وردت فيه، حيث يشير السياق إلي الزمن المستقبل .

ومن كل ما تقدم يتضح أنه علي الرغم من ورود صيغة (قرأ) في القرآن الكريم ست مرات فإن دلالتها علي الزمن الماضي ليست مطلقة، بمعني أن السياقات التي وردت فيها قيدت زمن الفعل الماضي، وخصصته للاستقبال سواء بواسطة ظرف الزمان (إذا) أم بمعني الشرط في قوله تعالي: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾

الشعراء ٢٩٨ـ٢٩٩ .

وفضلا عن ذلك، فإن هذه الأساليب تفيد أيضا الدلالة على الاقتران الزماني بين القراءة بوصفها الحدث الذي تشير إليه صيغة (قرأ) وبين الأحداث التي وردت في سياقات الآيات الكريمة السابقة، وهي وفق ترتيب ذكرها :ـ

١ ـ الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم في الآية الأولى .
٢ ـ وجود الحجاب المستور في الآية الثانية .
٣ ـ الاتباع في الآية الثالثة .
٤ ـ عدم إيمان الأعجمين في الآية الرابعة .
٥ ـ الاستماع والإنصات في الآية الخامسة .
٦ ـ عدم الاستجابة بالسجود في الآية السادسة .

وهذا الاقتران الزماني يفسر بعض الأمور السابقة المتعلقة بالقراءة للقرآن، منها ما يتعلق بآدابها كما في الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والاستماع والإنصات عند الاستماع إليها، واتباع قراءة السابقين ممن تلقوا عن سابقيهم، ومنها ما يتعلق بردود أفعال من لا يؤمنون بالله إذا قرئ عليهم القرآن الكريم .

ب ـ الفعل المضارع :

وردت صيغة الفعل المضارع المعبرة عن القراءة خمس مرات في القرآن الكريم، كما يلي :ـ

ـ الموضع الأول : في قوله تعالى :﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ الإسراء : ١٠٦.

والقراءة هنا ـ قراءة تبلغ ـ أي لتبلغه للناس، وذلك لأن تبليغ القرآن يحدث من خلال قراءته، وقد أفادت صيغة المضارع هنا استمرارية القراءة ، والتبليغ .

ـ أما الموضع الثاني: ففي قوله تعالي:﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ الإسراء :٩٣.

والقراءة هنا هي القراءة بمعناها الاصطلاحي الذي أشير إليه من قبل، ولكنهم أي الكفار، قيدوها بكتاب خاص طلبوا من الرسول الكريم (ﷺ) إنزاله عليهم، بوجه من الله تعالي إلي كل واحد منهم.

ـ أما الموضع الثالث : ففي قوله تعالي : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ يونس : ٩٤. والقراءة هنا هي قراءة الدرس، والإلمام بما ورد في الكتب السابقة التي جاء بها الأنبياء من قبل، وفهمه، فيتبين لهم من ذلك أن ما جاء به محمد (ﷺ)هو الحق .

ـ أما الموضع الرابع: ففي قوله تعالي:﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ .

والقراءة هنا عملية تفحص، وتذكر، حيث يقرأ من أوتي كتابه بيمينه صحيفة أعماله متفحصًا ما سجل فيها، متنكرا ما فعله في الدنيا، فيجد نفسه لم يظلم فتيلا، والفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة :﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ الحاقة : ٢٥ ـ ٢٦.

ـ أما الموضع الخامس: ففي قوله تعالى:﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾الأعلى: ٦

والقراءة هنا تبليغ، أي أن الله سبحانه وتعالى سيبلغ الرسول الكريم (ﷺ) رسالته فلا ينس منها شيئا إلا ما شاء الله، أي أنه سبحانه، يضمن لرسوله الكريم التبليغ كما يضمن له عدم النسيان، وهذه إشارة قرآنية إلي قدرة الله سبحانه وتعالي، فنحن البشر نستطيع أن نقرأ ما نشاء علي من نشاء من بني الإنسان، ولكنا لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نضمن احتفاظه بما قرأ عليه كله أو بعضه، بل إننا لا نستطيع أن نتحكم فيما يمكن أن يحتفظ به من حيث الكم أو النوع، أما السين في ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ فهي الاستقبال، أي أن التبليغ لم يحدث بعد، وإنما سيقع في المستقبل القريب .

ج ـ فعل الأمر:

وردت صيغة الأمر بالقراءة في القرآن الكريم في (ستة) مواضع :

أما الموضع الأول منها : ففي قوله تعالي :﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ الإسراء : ١٤.

وهذا أمر صادر من الله سبحانه إلي العبد ـ يوم القيامة ـ بأن يقرأ صحيفة أعماله. لتكون حجه له، أو عليه، والقراءة هنا تختلف عن كل ما ورد بالقرآن الكريم من صيغ تعبر عنها من حيث إنها أمر إلهي في موقف غيبي، وكتاب لا يعلم إلا الله كيف خطت حروفه، فهي قراءة غيبية شكلاً ، ومضموناً .

أما الموضع الثاني والثالث: ففي قوله تعالى:﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾

وقوله تعالي :﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ العلق : ٣.

وفي هاتين الآيتين الكريمتين جاء الأمر بالقراءة مطلقًا وصريحًا ، وهو أمر موجه إلي كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، وهي القراءة لتحصيل العلم والمعرفة التي يمكن أن تفيد الإنسان في حياته، وقد قال تعالي: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

والقراءة هي وسيلة الإنسان، ليعلم ما لم يكن يعلمه .

أما الموضع الرابع : ففي قوله تعالي : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴾ الحاقة : ١٩ .

وهذا أمر خرج عن ظاهر معناه لإظهار الفرحة والتعبير عن الرضا فالعبد المؤمن يوم القيامة يود من فرحته بكتابه أن يقرأه كل الناس، أي يطلعهم عليه، وقد عبر عن ذلك بقوله تعالي: (اقرءوا) ، لأن القراءة هي الوسيلة لمعرفة ما بين دفتي الكتاب .

أما الموضعان: الخامس، والسادس :

ففي قوله تعالي:﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ المزمل : ٢٠.

وفي هذه الآية الكريمة جاء الأمر بقراءة القرآن موجهًا إلي جماعة المسلمين عند قيام الليل،وأثناء الجهاد في سبيل الله،والقراءة هنا للتأمل والتفكر والتدبر ووسيلة لشحذ الهمم، وتقوية العزائم بآيات الله أثناء الجهاد سبيله .

٢ ـ الصيغ الاسمية :

للاسم فى اللغة العربية أنواع، منها: اسم الذات، وهو يدل على مسمى معين كأسماء الأعلام وغيرها، واسم الجنس، واسم الجمع، واسم الفاعل، واسم المفعول وغيرها من المشتقات، والاسم المبهم ومنه: أسماء الموازين والمكاييل والأعداد وما شابه ذلك، ومنها ـ أيضًا ـ اسم الحدث وهو ما دل على الحدث، أو نوعه، أوعدده.

ومن ذلك المصدر، واسم المصدر، واسم الهيئة، واسم المرة .

ومن تعريفهم لاسم المصدر يتضح أنه اسم يدل على الحدث بواسطة دلالته على لفظ المصدر، وقد أوردت المعاجم (قرآنًا) مصدرًا لـ (قرأ) (يقرأ) ومن ثم يتضح أن الـ (قراءة) اسم مصدر يدل علي (قرآن) مصدر (قرأ).

ومن ثمَّ فإنه يمكن القول بأن ما ورد في القرآن الكريم من صيغ اسمية تعبر عن (القراءة) يندرج تحت النوع الأخير من أنواع الأسماء (اسم الحدث)، وبالتحديد صيغة المصدر، وقد وردت صيغة المصدر بدون الألف واللام في (١٩) تسعة عشر موضعًا من القرآن الكريم، وقد جاءت خالية من الألف واللام في هذه المواضع تفريقا بين كونها مصدرًا دالاً علي حدث في (قرآن)، وكونها اسمًا لكتاب الله العزيز في (القرآن) والله أعلم، وهو من وراء القصد، وفيما يلي تفصيل لذلك .

أولاً : صيغة " قرآن :

أشرنا إلي أن هذه الصيغة، في المواضع التي وردت فيها من القرآن الكريم ودلت علي الحدث الذي هو القراءة، من حيث إنها المصدر .

وقد وردت هذه الصيغة (قرآن) في تسعة عشر موضعا ...

ـ منها ما يشير إلي فضل أوقات معينة لقراءة القرآن ، ومن ذلك قوله تعالي:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ الإسراء : ٧٨. أي قراءته في وقت الفجر .

ـ ومنها ما جاء لتخصيص ذلك الحدث (القراءة) وتحديد طبيعته، ومنه :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ يوسف : ٢.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ طـه : ١١٣.

﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ فصلت : ٣.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ الزخرف : ٣.

وقوله تعالي: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾.

ـ وقوله تعالي :﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ﴾ .

ويتضح من سياقات هذه الآيات الكريمة أن الصفات التي وصف بها المصدر قد خصصته، وحددت طبيعته، فهو قرآن ـ أي قراءة ـ عربي، وليس أعجميًا ولعل ما زيلت به الآيات من قوله تعالي: (لعلكم تعقلون) يشير إلي أن(قرآن) في هذه الآيات تعني القراءة، حيث إنها تتطلب إعمال العقل، والتفكر والتدبر، وهو هنا القرآن الكريم .

ومنها ما جاء لبيان أوجه الإعجاز المرتبطة بهذا الحدث (القراءة) ومن ذلك:ـ

يقول سبحانه:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ الرعد: ٣١.

وقوله سبحانه:﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ الرعد: ٢٣١.

وقوله سبحانه: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ الحجر: ١.

وقوله جل شـــأنه: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ الإسـراء: ١٠.وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ الجن: ١.

ومنها ما جاء لبيان طريقة الأداء المميزة للقرآن الكريم .

وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ القيامة: ١٧: ١٨.

ثانيًا : صيغة (القرآن) :

وردت صيغة المصدر (قرآن) مقترنة بالألف واللام في القرآن الكريم في (٥١) واحد وخمسين موضعًا للدلالة علي اسم كتاب الله العزيز .

وللألف واللام في اللغة العربية وظائف، فإما أن تكون اسمًا موصولاً بمعني الذي، وإما أن تكون لاستغراق الجنس، وإما أن تكون عهدية، أما كونها موصولة، فذلك من خصوصيات الشعر وضروراته، ولم يرد في القرآن الكريم مثل هذا الاستعمال أما كونها للتعريف فليس الـ " قرآن " بحاجة إلي تعريف، لأنه حقيقة حاضرة في ذهن من يؤمن به، ومن لا يؤمن علي السواء، وإن اختلف وعي كليهما به، ومن ثمّ فليس بنكرة، أما كونها جنسية لاستغراق أفراد الجنس أو خصائصهم فإن القرآن اسم لمسمي لا مثيل له ولا شبيه، فهو فريد في كل شيء، ومن ثم فلا معني لأن تكون الألف واللام فيه لاستغراق الجنس .

لم يبق إذًا من وظائف الألف واللام إلا العهدية وتلك وظيفتها المحققة من اقترانها بالمصدر (قرآن) .

و" آل " العهدية تأتي علي ثلاثة أوجه : فإما أن يكون مصحوبها معهودا ذكريا ، أي يكون قد ذكر في السياق قبلا، ومنه قوله تعالي في سورة النور:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾

النور : ٣٥.

فالألف واللام في كل من المصباح ، والزجاجة عهدية، وقد ذكر مصحوبها، أي مصباح، وزجاجة في السياق، قبل أن تقترن به، فهو معهود ذكريا .

وهذا الوجه لـ (آل) العهدية ليس بوارد في صيغة (القرآن) .

لأن عهد القارئ والمستمع به ليس وليد سياق بعينه، وإنما هو عهد ذهني، بمعني أن كلمة (القرآن) لها تصور معنوي في ذهن الإنسان، فإذا ما قرأها ربط بينها وبين هذا التصور العقلي لها .

أما الوجه الثاني لـ (آل) العهدية، فأن يكون مصحوبها معهودا ذهنيا، وقد جاءت معظم المواضع التي وردت فيها صيغة (القرآن) في القرآن الكريم علي هذا الوجه ومنه :ـ

قوله تعالي : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾ البقرة : ١٨٥.

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾التوبة : ١١١.

قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ الحجر: ٨٧.

قوله سبحانه: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ الإسراء : ٦٠

وقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الإسراء : ٨٢.

وقوله تعالى: ﴿ طٰهٰ ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ طه: ١ : ٢.

وقولـــه تعـــالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾.

وقوله جل شأنه: ﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ النمل : ١ .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ النمل : ٦

وقوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾النمل : ٩٢

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾فصلت :٢٦

قوله سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ محمد : ٢٤

وقوله تعالى:﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ق:١: ٢.

وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ق : ٤٥.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ القمر : ١٧.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ الرحمن : ١ : ٢.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ الواقعة : ٧٧.

وقوله سبحانه: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ المزمل : ٤.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ المزمل : ٢٠

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ الإنسان : ٢٣

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ الانشقاق : ٢١.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ البروج: ٢١.

أما الوجه الثالث: لـ (آل) العهدية، فأن يكون مصحوبها معهودًا حضوريًا، وعادة ما تكون مسبوقة باسم إشارة، أو حرف نداء، أو بإذا الفجائية، ومن المواضع التي جاءت فيها صيغة (القرآن) على هذا الوجه ما يلي :ـ

يقول سبحانه: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ الأنعام: ١٩.

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ٣٧.

ويقول عز وجل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يوسف: ٣.

ويقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الإسراء: ٩

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ الكهف: ٥٤.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ النمل: ٧٦. ويقول: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الزمر: ٢٧. ويقول سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ الحشر: ٢١.

ومما تقدم: يتضح أن صيغة القرآن " تدل علي اسم كتاب الله العزيز، وفي ذلك دقة بالغة يشير إليها ذلك الاتساق والتناغم المعجز بين الاسم والمسمي، وذلك ما يمكن أن نتبينه من عدة أوجه :ـ

أ ـ أن القرآن الكريم جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلي بعض، وهذا هو أصل معني (قرآن) .

ب ـ أن القراءة، وهي الحدث المتضمن في (قرآن) هي وسيلة التعرف على ما جاء به، وفهم معانيه، وتدبر أحكامه، وتفقه شرائعه، وتلك من متضمنات معنى القراءة والـ (قرآن) .

ج ـ أن القرآن إنما أنزل علي الرسول الكريم (ﷺ) ليبلغه إلي الناس أجمعين، وإبلاغه للناس إنما يحدث عن طريق قرآنه، أي قراءته، هذا فضلا عن أن الإبلاغ أحد معاني (قرأ) المشتقه من (قرآن) كما أنه الوظيفة التعبيرية الوحيدة للقراءة بوصفها فنا استقباليا .

دـ أنه أنزله من السماء إلى الأرض عن طريق (القراءة)، حيث كان جبريل (عليه السلام) يقرؤه علي الرسول (ﷺ) ثم انتقل بين أرجاء الأرض عن طريق القراءة ، كما أن حفظه قراءة، وتلاوته قراءة، والتعبد به قراءة، فهو بحق قرآن ، فسبحان المبدع ...

وبعد .. فمن خلال إحصائنا لما ورد بشأن القراءة في القرآن الكريم يمكننا رصد الاستنتاجات التالية :ـ

أولاً : أن صيغ الأفعال المعبرة عن القراءة وردت في القرآن الكريم في تسعة عشر موضعًا ارتبطت في تسعة مواضع بالقرآن الكريم، في سياقات يشير بعضها إلي بعض آداب قراءته، وطريقة أدائها، وطريقة إبلاغة ونشره .

ثانيًا : أن الأمر بقراءة القرآن الكريم ورد في موضعين، وأن الأمر بالقراءة لطلب العلم والمعرفة التي تفيد الإنسان في دنياه ورد في موضعين أيضا، وفي ذلك إشارة إلي أن أهمية القراءة بالنسبة للإنسان لا تقل أهمية عن قراءته القرآن، ولا عجب في ذلك، فكل من عند الله، أي أن ما يمكن أن يحصله الإنسان من علوم عن طريق القراءة إنما هي من عند الله، يسّر لبعض خلقه أسبابها، فكانوا أسبابًا لإذاعتها ونشرها، ونقصد بذلك تلك العلوم التي تفيد الإنسان في حياته وتساعده علي فهم أمور دنياه، وترتقي بأسلوب حياته .

ومن جهة أخري فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي فصل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم .

الفصل الرابع

١ ـ مقدمـــــــة .

٢ ـ مفهوم الكتابـــة .

٣ ـ كيف نعبر بالكتابة ؟ .

٤ ـ أنـواع الكتابـــة .

٥ ـ أهمية الكتابـــة .

٦ ـ كيف تكون كاتبًا جيـدًا .؟

٧ ـ الكتابة كما عبر عنها القرآن الكريم .

الكتابة هي الفن اللغوي الأخير، والفني التعبيري الثاني بعد التحدث، وهي موضوع هذا الفصل بتقديم يوضح دور الكتابة، وأهميتها وما ورد بشأنها فـــي التراث العربي الإسلامي .

ثم ينتقل الفصل إلي تحديد مفهوم الكتابة لغة واصطلاحًا؛ تمهيدًا لتوضيح عملية الكتابة ، وتحليل للعمليات المتضمنة فيها، وذلك من خلال عملية الإنشاء والتدوين .

ثم يعرض بعد ذلك لأنواع الكتابة، فيحدد نوعيها: الوظيفي، والإبـــداعي، والمواقف التي يمكن أن يمارس فيها كل نوع منهما، وأغراض كل منهما .

ويتناول الفصل بعد ذلك أهمية الكتابة في الحياة الإنسانية والأدوار التـــي تميزها عن غيرها من فنون اللغة .

ويقدم الفصل بيانًا بأهم ما يجب أن يراعيه كل من يمارس الكتابة، حتـــى يكون أداؤه الكتابي علي المستوي الذي يرضيه .

وبذلك يكون الفصل قد انتهي من تحديد الأبعاد الفنية للكتابة بوصفها فنـــا لغويًا، لينتقل بعد ذلك إلي تحديد الملامح القرآنية للكتابة من خلال حصر ما ورد بشأنها قرآنا، واستقراء دلالاته التفسيرية، ومتضمناتها .

مقدمة :

الكتابة هي الفن اللغوي الرابع من حيث ظهوره في الممارسة اللغوية. حيث تستمد بعض مقوماتها من ممارسة الفنون الأخرى، وهي المظهر الثاني من مظهري التعبير في عملية الاتصال اللغوي .

والكتابة من الفنون التعبيرية التي لها شأن عظيم في حياة البشرية، فبظهورها بدأ التاريخ الحقيقي للإنسان، كما يقرر علماء الأنثربولوجيا.

حيث بدأ الإنسان يسجل خبراته، وعلومه، وإبداعاته، فتناقلت عبر العصور، وأخذ كل جيل يتدارسها ويضيف إليها للجيل الذي يليه، وما زالت حركة التسجيل مستمرة، وستظل كذلك، لتستمر عملية تواصل الأجيال، ووضع لبنات التاريخ الإنساني .

ومع مرور الأيام، وتغير الزمان يعلو شأن الكتابة، وترقي منازل أهلها، ولا عجب في ذلك، فهم يملكون مفاتيح كنوز العلم والمعرفة .

وقد رفع الله منزلة الكتابة عندما وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته، فقال تعالي: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ الانفطار : ١٠،

ورفع قدر القلم إذ قال تعالي: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ القلم : ١، ٢ .

فقد أقسم ـ سبحانه وتعالي ـ بالقلم، فأنزله بذلك منزلة الشمس والقمر وغيرهما مما أقسم به عز وجل في كتابه الكريم .

وقد حظيت الكتابة من اهتمام القدماء بما يعكس أهميتها ، ويبرز قيمتها، وعنايتهم بها، وحرصهم علي وضوحها وإبانتها .

فمما ينسب إلي المؤيد قوله: "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة، إليها ينتهي الفصل، وعندها تقف الرغبة ".

ومن كلام أبى جعفر الفضل بن أحمد:" الكتابة أساس الملك، وعماد الحكمة، وأغصان متفرقة من شجرة واحدة،والكتابة قطب الأدب، وملاك الحكمة، ولسان ناطق بالفضل، وميزان يدل علي رجاحة العقل ".

وقد أفاضوا في مدح الكُتاب، وذكر فضلهم علي من سواهم بما يمارسونه من الكتابة، يقول الزبير بن بكار:" الكتاب ملوك وسائر الناس سوقة ".

وقال ابن المقفع " الملوك أحوج إلي الكُتاب من الكتاب إلي الملوك ".

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد ": للكتاب أقرت الملوك بالفاقة والحاجة وإليهم ألقيت الأعنة والأزمة، وبهم اعتصموا في النازلة والنكبة ".

ومما امتدح به شعراؤهم الكتاب ، قول أحدهم :ـ

يؤلف اللولؤ المنثور منطقه *** وينظم الدر بالأقلام في الكتب

وقول آخر :ـ

إن هز أقلامه يومًا ليعملها *** أنساك كل كى هز عامله

وإن أقر علي رق أنا ملـه *** أقر بالرق كتاب الأنام له

ومما أنشدوه في ذم أدعياء الكتابة وهجائهم ، قول أحدهم :ـ

حمار في الكتابة يدعيها *** كدعوي آل حرب في زياد

فدع عنك الكتابة لست منها *** ولو غرقت ثيابك في المداد

وقول آخر :ـ

وكاتب كتبه تذكرني القرآن حتى أظله في عجب .

فاللفظ " قالوا قلوبنا غلف *** والخط " تبت يدا أبي لهب

ـ هو زياد، خطيب بني أمية المفوه، صاحب الخطبة البتراء، وهو مجهول النسب. ولذلك اشتهر بزياد بن أبيه، وكان أبو سفيان بن حرب قد نسبه إليه،

أولاً : مفهوم الكتابة :

يتضح من التقديم السابق للكتابة أنها ليست عملية بسيطة، وليست مجرد حروف تتجمع بطريقة معينة وترسم علي الورق، وليست عملية آلية قوامها الإمساك بالقلم، ورسم الحروف والكلمات، فلو كانت الكتابة كذلك فقط لكانت آلات للطباعة والكتابة أولي بها من الإنسان، ولما استحق إنسان أن يوصف بأنه كاتب،ولعلك ـ عزيزي القارئ ـ تتساءل الآن:ـ ما الكتابة أذًا ؟.

والكتابة ـ شأنها في ذلك شأن سائر الفنون ـ لها معناها اللغوي الذي يجعل فهمنا لمدلولها الاصطلاحي أمرًا ميسرًا .

فالكتابة لغة، مصدر كتب، يقول القلقشندى يقال: كتب، يكتب كتبًا وكتابًا وكتابة فهو كاتب .

والكتابة معناها: الجمع، يقال: تكتبت القوم إذا اجتمعوا، وقيل لجماعة الخيل: كتيبة، وسمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلي بعض .

قال ابن الأعرابي: وقد تطلق الكتابة علي العلم ، ومنه قوله تعالي ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي يعلمون، ومن ذلك قوله (ﷺ) في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذا: " إنى بعثت إليكم كاتبا ".

قال ابن الأثير: أراد عالما، وسمي بذلك لأن الغالب علي من كان يعلم الكتابة أن عنده علمًا ومعرفة .

وفي لسان العرب يقال: أكتب فلان فلانًا، أي سأله أن يكتب له في حاجة، واستكتبه الشيء، أي سأله أن يكتبه .

وقيل: كتبه أي خطه، واكتتبه استملاه، ورجل كاتب، والجمع كتاب وكتبه .

فالكتابة ـ كما تقدم ـ تعني الجمع لغة كما ذكر القلقشندى، ولعل هذا المعني ليس بعيدًا عن دلالة المصطلح، فعندما يكتب الكاتب إنما يجمع الكلمات، والجمل، والأفكار، والمشاعر، لتمتزج مكونة موضوعا أو كتابًا، بل أنه ليجمع الحروف معا، فيكون تلك الكلمات، ومن ثم أشير إلي الخط بالكتابة فيما أورده لسان العرب .

والكتابة بوصفها مصطلحًا يشير إلي فن لغوي له مقوماته، وفنياته التي تتضمن معرفة الكاتب بالرموز الكتابية التي تعبر عن أصوات الكلام، فليس بكاتب من لا يعرف تلك الرموز،وطريقة رسمها وفقا لما اتفق عليه أهل اللغة، وتتضمن الكتابة كذلك القدرة علي تكوين الجمل وبناء الفقرات، وإدراك العلاقات بين أجزاء الجملة، ومكونات الفقرة .

وتتضمن فضلاً عن ذلك معرفة الكاتب بقواعد النحو، وإلمامه بعلامات الترقيم، ومعرفة وظائفها، حيث إن عدم الالتزام بهذه القواعد، وتلك العلاقات من شأنه أن ينحرف بالرسالة عما قصد إليه الكاتب .

والقدرة علي صياغة الأفكار والمشاعر في كلمات وجمل، والربط بين الأسلوب والموقف الذي يستخدم فيه من العناصر الجوهرية المتضمنة في مفهوم الكتابة.

وفضلا عن كل ما تقدم ، فالكتابة عملية عقلية تعتمد أساسا علي التفكير، وإنشاء المعاني المرتبطة بمواقف الكتابة .

ومن ثمَّ فإنه يمكن تحديد مفهوم الكتابة، بوصفها فنًا لغويًا: أنها عملية عقلية تتضمن معرفة الرموز الكتابية التي تعبر عن أصوات الكلام، وتجميعها لتكوين كلمات والقدرة علي رسمها رسما صحيحا وفقا لقواعد الخط العربي، والربط بين الكلمات لتكوين جمل وفقرات، وتنظيمها في ضوء الغرض من الكتابة، وتقتضي الالتزام بقواعد النحو وعلامات الترقيم .

ثانيًا : كيف نعبر بالكتابة ؟.

إن تفسير عملية التعبير بالكتابة يقتضي التمييز بين عمليتين متكاملتين متزامنتين تحدث الكتابة من خلالهما، ولا يمكن أن تحدث الثانية منهما قبل تمام الأولي، وهاتان العمليتان، هما:عملية الإنشاء، وعملية التدوين .

أولاً : عندما يجلس الإنسان للكتابة، ويعد الصحيفة، ويمسك بالقلم تبدأ عملية الإنشاء، وهي عملية عقلية تحدث داخل عقل الإنسان، ومن خلال هذه العملية يستطيع الكاتب أن يكون محتوى الرسالة التي يريد كتابتها، فيحدد الهدف الذي يكتب من أجله، وهو إجابة عن هذا السؤال: لماذا يكتب ؟ وفي ضوء هذا الهدف يحدد الأفكار التي يريد نقلها، والتعبير عنها، ويصنفها إلي ما هو رليس، وما هو فرعي .

وإذا ما انتهي الكاتب من تحديد أفكاره فإنه يبدأ في انتقاء الكلمات والتعبيرات التي يري أنها يمكن أن تعبر عن هذه الأفكار .

وتعتمد عملية انتقاء الكلمات هذه علي ما لدي الفرد من رصيد لغوي مخزون في الذاكرة، ذلك الرصيد الذي يتكون لديه من خلال ممارسته اللغة قراءة واستماعًا، ومن ثمَّ فإن سهولة هذه العملية أو صعوبتها تتوقف علي خبرة الكاتب ورصيده اللغوي .

وينتقل الكاتب إلي مرحلة تالية هي مرحلة الإنشاء أي إنشاء الجمل، وتكوين الفقرات التي تشكل القالب اللغوي الذي سوف يصب فيه أفكاره ومشاعره، وترتبط هذه العملية أيضا بالرصيد الخبري اللغوي لدي الكاتب، ومعرفته بقواعد النحو، وعلامات الترقيم، إذ لا يمكن أن يكون جملة إذا لم يكن يعرف أنواع الجمل وأشباه الجمل، ويميز بين الجمل الاسمية، والجمل الفعلية،

ويعرف أركان كل جملة، ومكملاتها ووظيفة كل منها في التعبير، ووظائف علامات الترقيم في الجملة، وتعتمد هذه العمليةـ كذلك علي قدرة الكاتب علي ربط هذه الجمل ببعضها لتكوين فقرة تحمل معني، حتى لا تبدو جملاً متناثرة، متفرقة لا رابط بينها، وبعد ذلك ينتقي الكاتب الشكل التنظيمي لكتابته من حيث المقدمة، وعناصر الموضوع، والخاتمة، ونظام التفقير، ومن أين يبدأ ؟ وإلى أين ينتهي؟ وما الذي يجب تفصيل الكتابة فيه؟ وما الذي يجب المرور عليه مرورًا سريعًا، وما الذي يجب تقديمه، وما الذي يجب تأخيره ؟ وكل ما من شأنه أن يسهم في تنظيم الرسالة المكتوبة بالشكل الذي يرضي كاتبها .

وتجدر الإشارة إلي أن كل الخطوات السابقة المتضمنة في عملية الإنشاء، تحدث في آن واحد، ومتزامنة مع عملية التدوين التالية، ولا يمكن فصل خطوة في عملية الإنشاء عن الأخرى ولو بفاصل زمني مقداره جزء من الثانية، وإنما فصلت فيما تقدم علي هذا النحو، لتيسير تفسيرها .

أما الفصل الزمني الذي يمكن أن يحدث في عملية الكتابة كلها، فيحدث عادة بين عمليتي الإنشاء، والتدوين، فكثيرا ما يجلس الكاتب ممسكًا بالقلم وهو يفكر، ثم يكتب جملتين أو فقرة، ثم يفكر ثانية، وهذه الوقفات التي يفكر فيها الكاتب قد تطول، وقد تقصر من كاتب لآخر، ويتوقف طولها وقصرها على سرعة عملية الإنشاء، لأن الكاتب إنما يدون ما أنشأه، ثم يكف عن التدوين إلى أن ينشيء عبارة أخري، فيدونها وهكذا إلى أن تنتهي رسالته .

وكما أشرنا من قبل فإن عملية الإنشاء تعتمد اعتمادًا كليًا علي قدرة الكاتب علي اختيار الكلمات والتعبيرات، والربط بينها لتكوين جمل وفقرات تعبر عن أفكاره ومشاعره،وتتطلب من الكاتب رصيدًا لغويًا ثريًا،ومعرفة بقواعد النحو،وعلامات الترقيم،ومن ثمّ فإن البطء،أوالسرعة في عملية الإنشاء يتوقف

علي هذه المقومات، ومدي سيطرة الكاتب عليها .

وقد يدعي بعض الناس أن هذه المقومات ليست ضرورية إلي هذا الحد في عملية الكتابة، زاعمًا أنه يكتب رغم أنه ليس لديه معرفة بالنحو أوعلامات الترقيم، ولا يشغل باله بالاختيار، والربط، والتنظيم، وما سواها .

ونقول: نعم، إنه فعلا يكتب، ولكن العبرة ليست بالحدث نفسه، أي كونه يكتب، إنما العبرة بالنتاج، فماذا أنتج من كتابته ؟ هذا هو المهم، إن من يحاول الكتابة دون أن يلم ــ قدر استطاعته ــ بتلك المقومات لن ينتج إلا نصًا متهالكًا لا يكاد يقيم معني، ولا يبين عن غرض، وإذا أردت قراءته أعيتك قراءته دون طائل، وإذا حاولت فهم معناه ضللت وتفرقت بك السبل، إن كاتبًا هذه صفات ما كتبه جدير بأن ينضم إلي من قال فيه الشاعر :

يعي غير قلنا ويكتب غير ما *** يعيه ويقرأ غير ما هو كاتب

أو من قال فيه الآخر :

وكاتب أقلامه *** معودات بالغلط

يكشط ما يكتبه *** ثم يعيد ما كشط

ثانيًا : بعد إنشاء المعني المراد نقله كتابة، ووضعه في الشكل اللغوي الذي يعبر عنه وينقله بالصورة التي يريدها الكاتب يأتي دور العملية الثانية، وهي عملية التدوين.

وعملية التدوين هذه عملية حاسية حركية،أي تعتمد علي الحواس والعضلات، حيث تتطلب نضجًا عصبيًا، حتى يتحكم الكاتب في حركات اليد والأصابع للسيطرة علي القلم أثناء الكتابة، ومن ثمَّ فإن الطفل قبل سن السادسة يجد صعوبة في ذلك، حيث يطيش منه القلم كثيرًا، ولا تكتمل سيطرته عليه حتى بعد هذه السن إلا بالتدريب .

وتعتمد عملية التدوين ـ أيضاـ علي سلامة حاسة العين، حيث إن تجميع الحروف وترتيبها ورسمها، ومراعاة المسافات بين الحروف والكلمات، وتنسيق الخط ، وتنظيم الصحيفة، كل ذلك يعتمد علي الرؤية الواضحة .

واليد من الأعضاء التي تعتمد عليها هذه العملية اعتمادًا كليًا ، فهي التي تؤدي هذه العملية من خلال جهد عضلي، يشعر بآثاره من يمارس الكتابة لفترة طويلة نسبيًا، ومن ثمَّ فإن الطفل لا يستطيع أن يمارس الكتابة إلا بعد أن يكتمل نمو عضلات اليد .

وتتطلب عملية التدوين من الكاتب معرفة بأشكال الحروف الهجائية المختلفة، ورسمها بخط واضح مقروء .

ويعتمد وضوح الخط علي مراعاة التناسب بين الحروف طولاً واتساعًا، وترك مسافات ثابته بين الكلمات، ومراعاة حجم الحرف، وكيفية اتصاله بغيره، وبيان أجزائه، وميله أو استقامته، وطوله أو قصره، ووضع النقط والهمزات .

وعملية التدوين هذه قد تكون مصدر تشويش على مضمون الرسالة التي يريد الكاتب نقلها إذا لم يكن الخط من الوضوح بحيث لا يدع مجالا للبس عند قراءته .

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن جوانب الكتابة هو ما يحدث في العقل أي ما يدور بداخل الإنسان ضمن عملية الإنشاء، أما التدوين وهو الوجه الآخر للكتابة، والذي لا يمكن الزعم بأن الكتابة قد حدثت بدونه، فإنه يمكن أن يؤدي عن طريق الآله، حيث يجلس الكاتب أمام الماكينة (الآله الكاتبة) ويفكر في إنشاء ما يريد كتابته ثم يدونه عن طريقها، وكثير ممن يستطيعون العمل علي الآله الكاتبة ممن يمتهنون الكتابة يفعلون ذلك .

وما قصدنا من ذلك التقليل من شأن الخط، وقيمته، وأهميته، فلا كتابة بدون خط، فهو الأساس والجوهر، حتى في استخدام (الآله الكاتبة)، إذ لابد

لمن يمارس العمل عليها أن يكون ملما بأشكال الحروف، وتغيرها من أول الكلمة إلي وسطها إلي آخرها، وإنما الكتابة فقد تقرأ خطا واضحًا جميلاً منسقًا ،يبهرك جماله وروعه نظامه ولكن المكتوب لا يحمل مضمونًا يستحق التقدير أو الإعجاب، والعكس صحيح تمامًا، ولاعجب في ذلك، فمدارس الخطوط المنتشرة في كل مكان تعلم الخط ولا تعلم الكتابة، فيتخرج الدارس فيها " خطاطا " وليس بكاتب .

ثالثًا: نوعا الكتابة :

الكتابة من ألوان النشاط المهمة في حياة الأفراد والمجتمعات، فهي ـ كما أشرنا ـ أحد جانبي التعبير في عملية الاتصال اللغوي، بين أفراد المجتمع، لتبادل المصالح، والتعبير عن الآمال والآلام التي يجيش بها وجدان الفرد والجماعة .

وتمارس الكتابة، في مجالات كثيرة، ولأغراض متعددة، ولكنها دائما تنتمي لأحد نوعي الكتابة وهما : ـ الكتابة الوظيفية، والكتابة الإبداعية .

أ ـ الكتابة الوظيفية :

في حياتنا العملية اليومية مواقف كثيرة تقتضى الكتابة إما لقضاء حاجة، أو لتسجيل واقعة ما في محيط العمل، كالاجتماعات، والمؤتمرات وما إلي ذلك،

ومن هذه المواقف: كتابة الرسائل بمختلف أنواعها، ومحتوياتها مثل: رسائل الأصدقاء، ورسائل التهنئة، وغير ذلك من أنواع الرسائل، ومنها تكون الكتابة موظفة لنقل أفكار معينة لهدف محدد هو الهدف من الرسالة .

وكتابة الطلبات الرسمية لقضاء الحاجات من المصالح الرسمية وغيرها مثل : الحصول علي عمل، وطلب أجازة، أو طلب نقل، أو تظلم، أو شكوى، وما شابه ذلك، هذه الكتابة تكون وظيفية، حيث يكون الهدف منها مرتبطًا بموقف استخدامها .

ومن مواقف الكتابة الوظيفية، كذلك: كتابة التقارير الفنية، أو الدراسية، وملء الاستمارات، وكتابة مذكرات حول موضوع ما، كالمذكرات التفسيرية، وتلك التي يكتبها المحامون، والقائمون بأعمال السكرتارية للعرض على مديريهم، ومن هذه المواقف ـ أيضا ـ كتابة التعليقات والشرح، والإجابة عن

أسئلة كتابة، والملخصات، وغير ذلك مما يقوم به الدارسون .

وفي كل المواقف السابقة يكون التعبير بالكتابة مركـزًا حـول المطالـب العملية لحياة الإنسان، والمواقف الاجتماعية التي يمر بها .

وفي هذه المواقف تكون الكتابة وظيفية، حيث يركز الكاتـب علـى النـواحي المعرفية المتصلة بالهدف الذي يكتب من أجله كأن يقدم نفسه، ويصف مؤهلاته وخبرته وكل ما يتصل به إذا كان المطلوب هو الحصول علي عمـل، أو يركـز علي أخبار معينة ينقلها لمن يراسله إذا كان يكتب رسالة، وهكذا ....

وفي الكتابة الوظيفية يبتعد الكاتب عن اسـتخدام الـصور البلاغيـة، أو الألفاظ الموحية، فلا مجال لها في مثل هذا النوع من الكتابة وخصوصا إذا كان الأمر يتعلق بقضاء حاجة، حيث يعمد الكاتب إلي استبعاد كل لفظة قـد تحمـل معنيين في تفسيرها، ويتجنب كل كلمة، أو تعبير قد يكون غامضا عند تفسيره، حتى يضمن أن تصل رسالته كاملة إلي المسئول عن التنفيذ فيفهم ما فيها ، كما أراد صاحب الحاجة .

وفيها ــ أيضا ــ أي الوظيفية يعمد الكاتب إلي التعبير عن المطلوب فـي أقل الكلمات، وأقصر العبارات، ويحاول دائما أن يلم بـأطراف موضـوعه مـع الإيجاز في التعبير .

ب ــ الكتابة الإبداعية :

في مواقف الكتابة الوظيفية ــ كما تقدم ــ لا مجال للعوامـل الذاتيـة أو الخيال، أو العواطف، ومن ثمَّ فالمناخ ليس مهيئًا لاستخدام اللغة المجازية فـي الكتابة وعندما يكون الخيال عنصرًا من العناصر الممتزجة في عملية الكتابـة، وعندما تمتزج لغة الكاتب بعواطفه وانفعالاته، وتتغلغـل ذاتـه بـين الأحـرف والكلمات، يضاف إلي عناصر الكتابة عنصر جديد هو الإبداع .

والكتابة الإبداعية تستمد موضوعاتها من المصادر الطبيعية والتخيلية للكاتب، وتعبر عن إدراكه للعالم الذي يعيش فيه من خلال الاستخدام الحساس والمبتكر للغة ...

وتعتمد الكتابة الإبداعية- فضلاً عن قدرة الكاتب علي الكتابة بصفة عامة- علي قدرته علي التعبير عن الشعور والإحساس، واستخدام اللغة المجازية، وفنيات الصياغة الأدبية .

ويدفع الكاتب إلي مثل هذا النوع من الكتابة رغبته في التأثير علي القارئ، ومخاطبة مشاعره ووجدانه .

ولا يقف الإبداع في الكتابة عند هذا الحد، بل يتعداه إلي أصالة الأفكار، وعمقها، وجدتها، وأصالة أساليب التعبير عنها، والإبداع في عرضها، وإبراز الصور المتخيلة، والإبداع في بناء الصور اللفظية، فالإبداع يشمل كل مراحل الكتابة بَدْءًا بالفكرة وانتقاء اللفظ، وانتهاء بالشكل التنظيمي لما تم إنشاؤه عقلا ومن مجالات الكتابة الإبداعية: كتابة القصص، والمقالات الأدبية واليوميات، وكتابة الشعر، وكل ما يكتبه الإنسان بغرض التعبير عن أحاسيس ذاتية، ورؤية خاصة، أو تسجيل خواطر نفسية .

وفي الكتابة الإبداعية يلجأ الكاتب إلي اللغة المشحونة بالانفعالات والمشاعر والأحاسيس للتأثير في قرائه، ومن ثمَّ تمثل اللغة المجازية عنصرًا حيويًا في كتابته، حيث لا تتسع اللغة الحقيقية لتلك المشاعر والأحاسيس .

وتتطلب الكتابة الإبداعية معرفة واسعة باللغة، مفرداتها، وتراكيبها، وأساليب التعبير عنها، والنحو، والصرف، والبلاغة، وعلامات الترقيم المستخدمة في الكتابة، كما تتطلب معرفة بالأدب الذي كتب بها شعره، ونثره.، لأن الإبداع لا يأتي من فراغ، ولا يمكن أن يكون مع لغة ركيكة .

وبعد ...

فإن الكتابة بنوعيها: وظيفية، وإبداعية ينبغي ألا تفتقر إلي الغرض الـذي يحدد اتجاهها،والصياغة التي توضح الأفكار المتضمنة فيها، فأكثر أنواع الكتابة الوظيفية جمالاً ما كان إبداعيًا في فكرته، وأكثر أنواع الكتابة الإبداعية وضوحًا ما كان وظيفيا فيما يرمي إليه .

وأيًا كان نوع الكتابة فما من شـك أن الكتابـة لهـا أهميتهـا الإنـسانية والاتصالية والتاريخية والدينية، وهذا ما تعرض له النقطة التالية ...

رابعًا : أهمية الكتابة :

الكتابة وسيلة من أهم وسائل الاتصال الإنساني، بها يعبر الإنسان عن مشاعره وأحاسيسه، ويسجل ما يريد تسجيله من خبرات، وأفكار، ومعلومات، وعن طريقها يتجاوز الإنسان حدود الزمان والمكان، فينقل خبراته إلي الأجيال المتعاقبة والأماكن النائية، ومنذ ظهور الكتابة استشعر الإنسان أهميتها، وسعي إلي تعليمها وتعلمها، ولنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة، فقد كان موقفه من أسرى بدر إشارة واضحة إلى أهمية الكتابة، ودعوة صريحة إلى تعليمها، فقد اشترط عليهم (ﷺ) لإطلاق سراحهم، أن يعلم كل من يعرف الكتابة منهم عشرة من المسلمين .

وقد أدرك القدماء أهمية الكتابة وضرورتها. فقال بن سعيد بن العاص من لم يكتب فيمينه يسري، وقال معن بن زائدة: إذا لم تكتب اليد فهي رِجْل وبالغ بعضهم في ذلك فقال: لا " دية " ليد لا تكتب .

وقد يستهجن هذه المقولات بعض من يقرؤها تحت دعوى أن الرسول الله (ﷺ) كان أميا لا يكتب. وحتى لا تختلط الأمور فلابد من التدقيق فيها فأمية رسول الله (ﷺ) كانت لحكمة أرادها الله حتى لا تكون الكتابة حجة ضده وضد رسالته من قبل الكفار. فيتهم من قبلهم بأنه نقلها من كتب السابقين. إذ أنهم رغم علمهم بأنه (ﷺ) لا يكتب. ومع ذلك اتهموه كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الفرقان : ٥ .

فلما عجزوا عن اتهامه بنقلها، قالوا: إنها تُملي عليه، فاكتتبها بمعني استملاها، أي طلب أن تملي عليه، فالأمية عند الرسول الكريم فضيلة، وهذا ما

أشار إليه قول الحق سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ العنكبوت : ٤٨ .

وقد روي عن العتبى – فيما رواه القلقشندى – قوله:" الأمية في رسول الله (ﷺ) فضيلة، وفي غيره نقيصة. لأن الله تعالي لم يعلمه الكتابة، لتمكن الإنسان بها من الحيلة في تأليف الكلام، واستنباط المعاني فيتوسل الكفار (يتخذونها وسيلة) إلي أن يقولوا: اقتدر بها علي ما جاء به " .

ومما يروي في هذا الصدد ما أورده القلقشندى عن أبي جعفر النحاس : أن المأمون قال لأبي العلاء المعري: " بلغني أنك أمي، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن في كلامك " فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله (ﷺ) أميًا، وكان لا ينشد الشعر، فقال له المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل يا جاهل، ذلك في النبي (ﷺ) فضيلة، وفيك وفي أمثالك نقيصة ".

فالأمية في رسول الله (ﷺ) صفة إعجاز، وفي غيره صفة عجز، وانتفاء صفة الكتابة عنه تكريم له، وتنزيه عن الشبهات، وانتفاؤها عن غيره نقص يعريه، وفي ظلمات الجهل يرديه، ومن ثمَّ كان موقفه (ﷺ) من أسرى بدر إشارة إلي أهمية الكتابة في حياة المسلمين .

وترجع أهمية الكتابة إلى دورها الرائع في حفظ التراث البشري، ونقله عبر الأجيال، فعظمة الأمم، وحضارتها بتاريخها وتراثها الذي يستند إليه حاضرها، ويحدد ملامح ثقافة أبنائها، ولولا الكتابة ما عرفنا شيئًا عن ماضينا، ولا انقطعت أسباب الصلة بيننا وبين تراثنا، فعن طريقها انتقلت إلينا آداب القدماء وعلومهم، وفكرهم، وعرفنا تاريخهم، وحضارتهم .

وما هذا الذي نتدراسه اليوم من تاريخ الفراعنة، وحضاراتهم، والأدب العربي القديم، والأدب الإسلامي في عصوره المختلفة، وكل ما يزخر به تاريخ المصريين القدماء وغيرهم، والتاريخ العربي الإسلامي، ما هذا كله إلا شواهد حية علي عظمة دور الكتابة في حياة البشرية .

وإذا كان فضل الكتابة في حفظ التراث البشري يشمل الجنس البشري جميعه علي اختلاف ألوانه، ولغاته، وتواريخه، فإن للكتابة العربية فضلاً يميزها، يزيد من عظمة دورها في تاريخ الأمة العربية الإسلامية، ألا وهو دورها في حفظ التراث الإسلامي، ممثلا في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وما أبدعته قرائح علماء المسلمين من شروح وتفسيرات حولها، فقد تعهد سبحانه وتعالي حفظ كتابه، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

وكانت الكتابة هي الوسيلة التي سخرها الله لعبادة فسجلوه بها، فضلا عن حفظه في صدورهم .

ويؤكد أهمية الكتابة في حياة الإنسان دورها في تسجيل خبرات الإنسان، وما يريد الاحتفاظ به في شتي شئون حياته، فبها يسجل أحدث ما يتوصل إليه من العلوم والمعرفة، وبها يسجل ما يبدعه من الآداب والفنون، وبها يسجل تاريخه وما يخشى نسيانه، ويشير إلي أهمية هذا الدور ما روي عن النبي (ﷺ) " قيدوا العلم بالكتابة "، حيث الإشارة إلي أهمية تسجيل ما يتوصل إليه الإنسان من علم ومعرفة بالكتابة، حتى لا ينسى من ناحية، ويحفظ للأجيال اللاحقة من ناحية أخري .

وقد روي أن ذا الرمة الشاعر الأموي، قال لعيس بن عمر: " اكتب شعري، فالكتاب أعجب إلي من الحفظ، إن الأعرابي لينسى الكلمة سهرت في طلبها ليلة، فيضع موضعها كلمة في وزنها لا تساويها، والكتاب لا ينسى، ولا يبدل كلامًا

بكلام والتعبير أهم الوظائف التي تحدد أهمية الكتابة في حياة الإنسان، فبها يعبر الإنسان عن أفكاره ومشاعره، وينقلها إلي الآخرين، وبها يقضى الإنسان حاجاته، وينظم بعض شئون حياته، فهي من أهم وسائل الاتصال اللغوي بين أبناء المجتمع، ومما يبرز أهمية الكتابة في حياة الإنسان أنه يستطيع بها أن يتجاوز حدود المكان والزمان الذي يعيش فيه، حيث يمكن له بالكتابة أن ينقل ما يريد نقله إلي الأماكن البعيدة التي قد يضنيه السفر إليها، كما يمكن للإنسان أن يتصل بغيره من الأجيال اللاحقة عن طريق الكتابة .

خامسا : كيف تكون كاتبًا جيدًا ؟.

كثيرًا ما يتعلق بعض الناس بكاتب معين، فيقرأ له، ويتتبع كتاباته، ويترقب ظهور آخر كتبه، فيسعى إلي اقتنائها، إذا ما ذكر هذا الكاتب أمامه انبري يعدد مزاياه، وأفاض في مدح كتاباته، وأعرب عن أمنياته في أن يكون مثله في يوم ما والإنسان في حياته معرض للمواقف التي تقتضى منه أن يمارس الكتابة، ليعبر لغيره عما يقتضيه الموقف، وهو حينئذ أحوج ما يكون إلي أن تكون كتاباته من الوضوح والدقة، بحيث تعبر بدقة عما يريد، فإذا أردت عزيزي القارئ لما تكتبه أن يكون كذلك فدقق في قراءة الفقرات التالية، محاولا أن تتمثل ما جاء فيها : ـ

أولاً : وقبل كل شيء، يجب أن تحدد الهدف من الكتابة، والهدف هو الإجابة عن هذا السؤال، لماذا نكتب ؟ ولسنا بحاجة إلي تكرار أهمية وضوح الهدف قبل البدء في ممارسة أي عمل بصفة عامة، وممارسة فنون اللغة بصفة خاصة .

ـ يجب أن يكون واضحًا في ذهنك سمات من تكتب له وقدراته، حتى تخاطبه بالأسلوب الذي يفهمه، وبلغة لا تعجزه عن فهم مضمون الكتابة .

ـ حدد الموضوع الذي سوف تكتب فيه تحديدًا دقيقًا، فلا تقل مثلاً إني سوف أكتب مقالاً عن " السكان في مصر " فهذا موضوع كبير وغير محدد، إذ ماذا يمكن أن تكتب في موضوع مثل هذا ؟ هل ستكتب عن الكثافة السكانية، أو عن التوزيع الجغرافي للسكان، أوالزيادة المطردة في عدد السكان، أو عادات السكان وتقاليدهم أو مشاكلهم، أو المشكلات المترتبة علي الزيادة السكانية، أو وجهات النظر المختلفة، فيما يتعلق بتنظيم النسل، وحتى إذا حددت واحدًا منها فإن ذلك يتطلب منك تحديدا آخر، لنفرض أنك حددت موضوعك في (المشكلات الناتجة

عن الزيادة السكانية). فينبغي أن تحدد أي نوع من هذه المشكلات، فهل تقصد المشكلات،الاقتصادية،أو المشكلات،الصحية،أو المشكلات،الاجتماعية، أو المشكلات التعليمية أو المشكلات الأخلاقية، فإذا وقع اختيارك علي نوع من هذه المشكلات مثلاً، فعليك أن تجعله عنوان موضوعك ثم تبدأ في تحديد الأفكار التي يمكن أن تتناولها فيه، أما إذا كنت مُصرًا علي العنوان الأول (السكان في مصر) فعليك أن تستوفي جميع ما أوردناه تحته من موضوعات وغيرها مما يمكن أن يتوالد من تحليل كل موضوع في كتابتك .

ـ إذا جلست للكتابة فلتكن جلستك في الوضع الصحيح، من حيث راحة الجسم والإضاءة ووضع الصحيفة علي المكتب، وسهولة حركة اليد.

ـ بعد تحديدك للموضوع حدد الفكرة الرئيسة التي يدور حولها ،وهذه الفكرة الرئيسة ينبغي أن تكون هي المحور الذي ينظم كل أجزاء الموضوع، بحيث لا تشذ فقرة عنها أو حتى جملة، ففي موضوع مثل: (المشكلات التعليمية الناتجة عن زيادة السكان) يمكن تناوله من خلال الفكرة الرئيسة التالية (العلاقة بين التعليم والزيادة السكانية) .

وهنا يمكن أن نتناول كل مشكلات التعليم الناتجة عن الزيادة السكانية من خلال هذه الفكرة، حيث توضح العلاقة بين الزيادة السكانية، ومشكلات المباني المدرسية،وكثافة الفصول، ومستوي الطالب، والتكلفة، والدروس الخصوصية وغيرها من مشكلات، ويمكن أن تناول الموضوع نفسه من خلال فكرة رئيسة أخري مثل: (الآثار السلبية للزيادة السكانية علي العملية التعليمية) وهنا يكون عرض مشكلات التعليم الناتجة عن الزيادة السكانية عن طريق إبراز الأسباب المتعلقة بالزيادة السكانية، والتي أدت إلي ظهور هذه المشكلات، وهكذا يمكن تناول الموضوع الواحد من خلال أكثر من فكرة، وعلي الكاتب أن يحدد الفكرة الرئيسة في ضوء ما يريد أن ينقله إلي القراء .

ـ بعد تحديد الفكرة الرئيسة حللها إلي أفكار فرعية تحدد أبعادها، وترتبط بها، حتى يسهل تناولها واستيفاؤها، ففي الفكرة الرئيسة السابقة ـ علي سبيل المثال " الآثار السلبية للزيادة السكانية " يمكن تحليلها إلي أفكار فرعية مثل: الزيادة السكانية ومشكلة المباني، والزيادة السكانية، وكثافة الفصول .. الخ حتى تستوفي كل الأفكار المتصلة بالأفكار الرئيسة .

ـ دقق جيدًا في اختيار المفردات التي تعبر عن أفكارك، فالمفردات، والجمل التي تكتبها هي القوالب التي تصب فيها أفكارك، أي اعوجاج في القالب سوف ينتج عنه بالضرورة اعوجاج في مضمونه .

ـ اعرض موجزًا بسيطًا في مقدمتك، سجل فيه الفكرة الرئيسة، والأفكار الفرعية، المتصلة بها حتى تحيط القارئ مقدما بما سوف يقرأ، فيتابعك باهتمام.

ـ رتب أفكارك في تتابع منطقي بحيث تقود كل فكرة للتي تليها، فلا تقدم ما يستحق التأخير، ولا تؤخر ما يستحق التقديم، حتى يبدو الموضوع متكاملاً متماسكًا.

ـ لا تنتقل من فكرة إلي التي تليها قبل أن تستوفيها ، وعالج الفكرة الواحدة في مكان واحد، حتى لا تفقد سيطرتك علي موضوعك وتشتت من يقرأ لك .

استعن فى كتابك بكل ما لديك من خبرات يمكن أن تخدم الفكرة التى تتناولها بالكتابة، أيا كان مجال هذه الخبرات.

ـ مهد للنهاية دائما بفقرة أو بجملة علي الأقل، حتى يستعد القارئ للنهاية ، فلا تقطع كتابتك فجأة لمجرد أنك أفرغت ما بداخلك، وتترك الموضوع مفتوحًا .

ـ أخيرًا ينبغي أن تكتب كل أعمالك في مسودات قبل أن تقدمها في الشكل النهائي، حيث إن ذلك يعطيك الفرصة لمراجعتها، ومعالجة أي خطأ في عملية الإنشاء أو التدوين .وبعد:

فتلك أهم الأبعاد الفنية للكتابة بوصفها الفن اللغوي الرابع، وفيما يلي لنا وقفة أخري مع أهم الملامح القرآنية للكتابة من خلال استقراء دلالات الألفاظ القرآنية.

سادسًا: الكتابة كما عبر عنها القرآن الكريم :

الكتابة ــ كما ورد في لسان العرب ــ كلمة تدل علي حرفة من يمارسها، أما مصدر " كتب، يكتب، فهو الكتاب، ومن ثمَّ فلم ترد كلمة الكتابة " ببنيتها الصرفية في القرآن الكريم، وإنما ورد فيه من صيغ الأفعال والأسماء ما يعبر عنها بوصفها حدثًا يعبر عن ممارسة لغوية .

وقد وردت صيغ الأفعال المشتقة من (الكتاب) في (٥١) واحد وخمسين موضعًا تنوعت بين الماضي والمضارع والأمر، وقد وردت الصيغ الاسمية في ست مواضع أما الأمم (الكتاب) فقد ورد (٢٦٢) مرة .. باشتقاقات مختلفة .

ــ صيغ الأفعال :

وقد وردت صيغ الأفعال للكتابة المشتقة من (الكتاب) بمعان متنوعة، يمكن تصنيفها علي النحو التالي :ــ

أ ــ الكتابة بمعني التدوين والتسجيل .

التسجيل هو الوظيفة التي تميز الكتابة عما سواها من فنون اللغة، ومن ثمَّ فهي ألصق بها، وقد وردت صيغة الماضي، لتشير إلي هذا المعني في القرآن الكريم في المواضع التالية :ــ

قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ الأعراف ١٤٥.

قولـــه تعـــالى: ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ التوبة : ١٢٠ .

قوله سبحانه: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ التوبة : ١٢١

قوله ســـبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ الأنبياء : ١٠٥

ويلاحظ هنا أن الكتابة في هذه السياقات عملية تدوين وتسجيل ، وقد عبر عنها بصيغة الماضي ، لتحققها في علم الله تعالي .

أما صيغة المضارع فقد وردت بالمعني السابق ـ التدوين والتســـجيل ـ في المواضع التالية :ـ

ـ قوله تعـــالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا

دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ﴾ البقرة ٢٨٢.

ـ قوله تعالى: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ال عمران : ١٨١.

ـ قوله تعالي: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾.

ـ قوله جل شأنه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ ﴾

ـ قوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ الزخرف : ٨٠.

ـ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ الزخرف : ١٩.

أما صيغة الأمر فقد وردت بالمعني السابق ـ التدوين والتسجيل ـ في خمسة مواضع ، هي :ـ

ـ قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ البقرة : ٢٨٢.

واكتبوه أي سجلوه كتابة .

ـ قوله عز وجل: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ آل عمران : ٥٣.

ـ قوله سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ المائدة : ٨٣.

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾.

ويلاحظ أن الأمر في هذه الآيات الثلاث الكريمة قد خرج عن ظاهر معناه إلى معني آخر، وهو الدعاء، أي ربنا سجل لنا الحسنات، وسجلنا مع الشاهدين.

والدعاء و(كتب) هنا أنسب لما يدعو به العبد ويرجوه ، وألصق به .

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ ﴾ النور : ٣٣ .

" وكاتبوهم " هنا تعني المشاركة في الكتابة، والمكاتبة: أن يكاتب العبد علي نفسه بثمنه فإن سعي وأداه ـ الثمن ـ عتق، والكتابة هنا لتسجيل العقد بين العبد وسيده .

<u>ب ـ الكتابة بمعني الإنشاء :</u>

والإنشاء هو التركيب، والتأليف، والتنظيم، وكلها من متضمنات الكتابة، وقد وردت صيغة الفعل الماضي مشيرة إلي هذا المعني في قوله تعالى:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة :٧٩.

والآية تشير إلي كتاب ألفه اليهود، وزعموا أنه من عند الله .

ووردت صيغة المضارع بنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة : ٧٩.

ج ـ الكتابة بمعني الفرض :

ليس غريبًا أن يشتق من (الكتاب) ما يعبر عن (الفرض)، فأصل الفرض هو الجز في الشيء، وقد سمي كذلك، لأن له حدودا ومعالم . والكتابة كذلك لها حدود ومعالم تتمثل في أشكال الحروف، والكلمات، وأبعاد الخط، فضلا عن أن الكتابة هي التي تحدد معالم الأفكار، فيستدل عليها من رسول الكلمات التي تعبر عنها، وفضلا عن ذلك فإن الأصل فيما فرضه الله علي عباده أنه مكتوب في اللوح المحفوظ ،وقد روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي (ﷺ) قال :ـ" إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي" .

* وقد وردت صيغة الفعل (كتب) بمعني (فرض) في المواضع التالية:

ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ ﴾ البقرة : ١٧٨.

ـ قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة : ٢١٦.

ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة : ١٨٣.

ـ قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة : ٢١٦.

ـ قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة : ٢٤٦.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ ﴾ النساء : ٦٦.

ـ قوله جل شأنه: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ ﴾ النساء : ٧٧.

ـ قوله سبحانه : ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ ﴾

ـ قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾ الأنعام : ١٢.

ـ قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ ﴾ .

قوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ النساء : ١٢٧.

قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ المائدة: ٢١

ـ قوله: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾ المائدة : ٣٢.

ـ وقولـه: ﴿ فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ـ وقوله سبحانه :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الحج: ٣،٤. ـ وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ ﴾ الحديد : ٢٧.

ـ قوله سبحانه: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

ـ قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ المجادلة : ٢٢.

د ـ الكتابة بمعني الإستملاء :

استملاه الكتاب، أي سأله أن يمليه عليه، وقد وردت صيغة الفعل الماضي للدلالة علي هذا المعني في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالي:

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

فاكتتبها هنا بمعني استملاها، لأنهم ـ أي الكفار ـ كانوا يعلمون أن الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) لا يكتب، ولما أرادوا أن يتهموه (ﷺ) بالنقل من كتب السابقين وأساطيرهم خشوا أن يقولوا: إنه كتبه، أي أنشأه وألفه، فتكون الحجة عليهم بدلاً من أن تكون لهم، فقالوا: (اكتتبها) أي استملاها، بمعني أن هناك من يمليها عليه، هذا ما زعموه والله أعلم .

هـ العلم ببواطن الأمور :

علم الشيء، يعلمه، علمًا، أي عرفه، واستدل عليه، ببعض معالمه، أو كلها والكتابة قيد العلم، وقد ورد عن عمر بن الخطاب قوله ـ رضي الله عنه: (قيدوا العلم بالكتابة) ومن القيد يستدل علي المقيد، فيعرف، ومن ثم سمي الكاتب عالمًا، فقد ورد قوله (ﷺ) في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذًا " إني بعثت إليكم كاتبا " وقال ابن الأثير في ذلك: أراد عالما، وسمي

بذلك.لأن الغالب علي من كان يعلم الكتابة أن عنده علما ومعرفة.

ومن ثمَّ فإن التعبير عن العلم بالكتابة أمر وارد في الثقافة العربية التي عاصرت نزول القرآن من حيث الاستعمال اللغوي للمفردة (يكتب) ثم هو أمر وارد في كل الثقافات اللاحقة، وإلي أن يرث الله الأرض ومن عليها من حيث علاقة التلازم بين المفردتين، فمن يمارس الكتابة يستطيع أن يعلم عن القدماء والمحدثين، وعن القريب، وعن البعيد عن طريق تتبع آثارهم من خلال قراءة ما سجلوه من علومهم كتابة .

وقد وردت صيغة (يكتب) بمعني يعلم في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم هي: ــ

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ النساء : ٨١.

واضح من سياق هذه الآية أن يكتب بمعني يعلم، ولكن التعبير بـ (يكتب) أفاد فضلا عن علمه (سبحانه وتعالي) بما يبيتون، أنه يسجله عليهم، ليحاسبوا به يوم القيامة، يقول سبحانه: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ الطور: ٤١.

ب ــ الصيغ الاسمية :

وردت الصيغ الاسمية المعبرة عن (الكتابة) في القرآن الكريم في مواضع متعددة وبمعان متنوعة، ومن هذه الصيغ :

١ــ صيغة اسم الفاعل :

اسم الفاعل من كتب: كاتب، والكاتب من حرفته الكتابة، وقد وردت صيغة اسم الفاعل في القرآن الكريم في ستة مواضع بهذا المعني الذي هو أقرب إلي

تسجيل المكتوب وتدوينه، وذلك في ستة مواضع، هي :ـ

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ ﴾ البقرة : ٢٨٢.

قوله سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ البقرة : ٢٨٢.

قوله سبحانه: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۠ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾البقرة : ٢٨٢.

قوله سبحانه:﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ الأنبياء: ٩٤.

قوله تعالي شأنه : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ الانفطار: ١٠، ١١

٢ـ صيغة اسم المفعول :

اسم المفعول من (كتب ـ يكتب) مكتوب، وقد وردت هذه الصيغة مرة واحدة في القرآن الكريم بمعني مسجل، وذلك في قوله تعالي :

﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ الأعراف : ١٥٧.

٣ـ صيغة المصدر (كتاب):

وردت صيغة المصدر (كتاب) في القرآن الكريم بصور متعددة واحد وستين ومائتين موضعا علي النحو التالي :ـ

أـ صيغة المصدر المعرفة بالألف واللام (الكتاب) تتعدد معانيها علي النحو التالي .

* وردت بمعني (القرآن الكريم) في عدة مواضع، منها :ـ

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ .

قوله سبحانه: ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ المبين ﴾ .

قوله سبحانه:﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾

قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾.

قوله جل شأنه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ .

* وردت بمعني (التوراة) في عدة مواضع ، ومنها :ـ

قوله تعالى:﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

قوله سبحانه:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ .

قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ ﴾.

قوله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ .

قوله سبحانه:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

قوله سبحانه:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ ﴾ .

قوله سبحانه:﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

* وردت بمعني (اللوح المحفوظ) في عدة مواضع ، منها :ـ

قوله سبحانه :﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ .

قوله سبحانه :﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

* وردت بمعني (الأجل)، وذلك في مثل :ـ

قولـــه تعـــالي: ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾ .

والأجل هنا هو عدة المطلقة، وقد عبر عنها بالكتاب. لأن الله قد كتبهـــا علـــي المرأة وسجلها في اللوح المحفوظ وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ب ـ صيغة المصدر غير المعرف بالألف واللام، وردت بمعان متعـــددة علـــي النحو التالي :ـ

* وردت بمعني (الفرض) في مثل :ـ

ـ قوله تعالي: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ .

* صحيفة (الأعمال وكتابتها) في مثل :ـ

قوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

قوله سبحانه: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله سبحانه: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾.

قوله سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ .

قوله سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾.

الكتب السماوية :

وردت بهذا المعني فى قوله سبحانه: ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ .

* وردت بمعني (القرآن الكريم) في مثل :

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ .

ـ قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ .

ـ قوله جل شأنه: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ .

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ .

ـ قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ .

* وردت بمعني (الرسالة) في قوله تعالي: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ .

* وردت بمعني (الأجل) في عدة مواضع ، منها :ـ

ـ قوله تعالي : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾.

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ .

ـ قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

والأجل المقصود هو المدة ، وقد عبر عنه بالـ (كتاب) في سياق الحديث عن أجل الإنسان وعمره الذي حدده الله له، وعبر عنه، كذلك لكونه مكتوبًا عند الله سبحانه وتعالى كما أوضحت الآيات .

* وردت بمعني (الحجة والبرهان) وذلك في قوله تعالي:

﴿ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الصافات : ١٥٧.

وقد عبر بـ (كتاب) دلالة علي الحجة والبرهان ، وذلك لتعجيزهم عن إقامة الدليل علي ما افتروه فيما روي عنهم قرآنا في قوله تعالي :ـ

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

حيث إنهم لن يستطيعوا الإتيان بكتاب من السابقين يؤيد ما يفترونه، ومن ثمّ كان التعبير بـ (كتابكم) ألصق بطبيعة البرهان المطلوب، وأوقع في إظهار عجزهم وافترائهم .

ج ـ وردت صيغة الجمع (كتب) في القرآن الكريم في ستة مواضع بمعني واحد في خمسة مواضع بمعني الكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالي، وذلك في :

ـ قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ البقرة : ٢٨٥ .

ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ . قوله تعالي: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ البينة : ٣.

ـ قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ سبا : ٤٤.

قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ التحريم : ١٢.

* وردت بالمعني المعروف (للكتاب) في موضوع واحد، وذلك في قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ الأنبياء : ١٠٤.

ويمكن أن نستنبط بعض السمات العامة للكتابة في القرآن الكريم على النحو التالي :

١ــ صيغة الماضي (كتب) أكثر الصيغ عددًا في تعبيرها عن " الفرض " وهذا يتفق مع طبيعة الفرض، فما فرضه الله تعالي علي عباده أمر قد قضي وليس هناك فروض جديدة ستأتي بمعني أن الاستمرارية معدومة .

٢ــ صيغة المضارع أكثر الصيغ عددا في تعبيرها عن" التدوين والتسجيل " وهذا يتفق وطبيعة عملية التسجيل والتدوين، فهي مستمرة إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها فيما بين البشر، وذلك لاستمرار أعمال البشر وتسجيلها في صحائفهم .

٣ــ صيغة الأمر بالكتابة جاءت علي سبيل الأمر بالكتابة العادية والتدوين والتسجيل والتسطير، وجاءت علي سبيل الدعاء، وعلي سبيل المكاتبة .

٤ــ صيغة المصدر " كتاب " تتسع معانيها في القرآن الكريم، فترد بمعني الفرض وبمعني صحيفة الأعمال وكتابتها، وبمعني الأجل، والرسالة، والحجة والبرهان، كما ترد بمعني الكتب السماوية عامة وبمعني القرآن والتوراة خاصة

٥ــ هناك فارق سيأتي بين " الكتاب " التي بمعني القرآن، و" الكتاب " التي بمعني التوراة، فالكتاب بمعنى القرآن لم ترد إلا معهودة حضوريا بالإشارة إليها، أو معهودة ذهنيا بالنسبة للرسول الكريم صلي الله عليه وسلم في سياق خطاب الحق سبحانه لرسوله الكريم، ومن ذلك قوله تعالي:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ آل عمران: ٧.

الخاتمة

في الفصول السابقة ألقي الضوء على فنون اللغة، فحددت أبعادها الفنية، وأهم الملامح القرآنية المستوحاة من الدلالات التفسيرية للألفاظ المعبرة عن هذه الفنون في القرآن الكريم .

وفي خاتمة هذا الكتاب لنا وقفة تأمل وتدبر مع هذه الفنون أداء، وخلافة الإنسان في الأرض، بما هي عبادة قوامها عمارة الكون اهتداء بنور الإيمان بما شرع لعباده من قوانين وشرائع .

وقد يستشعر القارئ العلاقة بين هذا وذاك، ولكن الأمر ليس كذلك، فخلافة الإنسان في الأرض بما تقتضيه من الإيمان بالله وعمارة الكون، نشاط إنساني قائم على التواصل والتفاعل ، وقوام هذا التواصل فنون اللغة .

فنون اللغة وعمارة الكون :

يقول تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة : ٣٠.

في هذه الآية الكريمة إشارة واضحة إلي أن الإنسان هو خليفة الله في أرضه، وأن هذه الخلافة فضل من الله اختص به الإنسان دون غيره من سائر المخلوقات ولخلافة الإنسان في الأرض تبعات ومسئوليات حملها الإنسان، فحملها على عظمها وخطورة شأنها ـ يقول سبحانه:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الأحزاب : ٧٢.

وقد خلق الله الإنسان مهيئًا لهذه الخلافة، وتلك الأمانة، فوهبه من القدرات ما يؤهله لذلك، فمناط هذه الخلافة ـ والله تعالي أعلم ـ عمارة الكون بما يحفظ مادية الإنسان ممثلة في جسده وحواسه، وعبادة الله كما أمرنا بما يحقق لنا السعادة في الدينا والآخرة، يقول سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ .

وإنما يعمر الكون بحركة الإنسان، وعمله، ونشاطه، وتفاعله مع من يحيطون به من بني جنسه، وتأمله، وتدبره في خلق الله سبحانه .

وهذا النشاط وتلك الحركة، وذاك التفاعل قوامه التواصل بين بني البشر، والفهم والتفاهم، وتبادل الأفكار والمشاركة في المشاعر، حتى تتحقق وحدة الجماعة .

وقد زود الله سبحانه وتعالي الإنسان بأسباب هذا التواصل، وأدواته، وهيأه للحياة في مجتمع، وأول أسباب هذا التواصل العقل ؛ فهو من نعم الله الجليلة التي أنعم بها علي عبادة وهو سر أودعه الله تعالي الإنسان، ليس له وجود مادي في جسد الإنسان شأن سائر الحواس، وإن كان العلم قد توصل إلي أن المخ في الإنسان هو مصدر التعقل، فإنه لم يستطع اكتشاف مواطن العقل في هذا المخ .

ونظرًا لأن العقل غير محس كاليد والرجل وباقي الحواس، فإن القرآن الكريم لم يشر إلي العقل بوصفه حاسة، أو أداة عاملة، وإنما جاءت الإشارة إليه في القرآن الكريم بوظيفته وآثاره التي يمكن من خلالها الاستدلال علي وجوده في الإنسان .

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٦٤.

فالإشارة إلي العقل هنا بصيغة المضارع إثبات لوجوده من ناحية، ولعلمه من ناحية أخري، ومن أسرار الإعجاز في ذلك أن وجود العقل مرهون بعمله ، إذ لا قيمة لوجوده بغير عمل، ومن ثمَّ كان قول الله تعالي (يعقلون) أبلغ وأدق من حيث دلالته على وجود العقل .

وإذا كان التعقل هو وظيفة العقل المشتقة من اسمه فإن التذكر، والتدبر،

والتفكر من وظائفه التي من شأنها مساعدة الإنسان على ممارسة شئون حياته، وقضاء حاجاته وهدايته إلي الصواب .

يقول تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ص: ٢٩.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الزمر :٢٧ ويقول سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٠: ١١.

وهكذا يكون العقل وسيلة الإنسان للاستدلال على الغائب بالحاضر وعلى المجهول بالمعلوم، وعلى المسبب بالسبب، ولعل أفضل ما يصل إليه الإنسان بعقله أن يهتدي إلي الله سبحانه، وليس ذلك بشاق على من يُعمل عقله ويتدبر في خلق الله سبحانه.

وليس أدل على بساطة ذلك من قول ذلك الأعرابي الذي سئل: كيف عرفت الله ؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، وأثر القدم يدل على المسير، سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدل ذلك علي اللطيف الخبير ؟!

وبالعقل يحيا الإنسان حياته الطبيعية، فيتصل بغيره، ويفهم عنه، ويفهمه، ويتحكم في كل ما يصدر عنه من سلوك، فيحفظ توازنه، ويدبر شئونه .

والمجتمع لا ينظر بعين الاعتبار إلا لمن يعمل عقله، بل إنه يلفظ المجنون، ولا يعول كثيرًا، على سلوكه، بل إن مناط التكليف والعبادة هو العقل .

وثاني أسباب التواصل بين الناس هو الاستماع، وقد أفردنا فيما تقدم فصلاً كاملاً عن الاستماع بوصفه فنًا لغويًا له أصوله وقواعده، وله أهميته في حياة الإنسان، وفي عمارة الكون .

وقد أعد الله الإنسان لممارسة الاستماع، فخلق له حاسته التي هي الأذن، فلكل إنسان أذنان هما وسيلته للاستماع، وهاتان الأذنان آية من آيات الله سبحانه، ودليلاً من دلائل الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان من حيث حجمهما وبساطة تركيبهما، ومكانهما من جسم الإنسان، وما تقومان به من وظائف حيوية في حياة الإنسان، قد لا يشعر بقيمتها إلا من فقد الحاسة .

وقد أشار القرآن الكريم إلي تلك النعمة الجليلة في غير موضع منه، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل : ٧٨.

ويقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ المؤمنون: ٧٨.

فالسمع هو تلك الحاسة التي يتحقق من خلالها أول اتصال للإنسان بالعالم المحيط به، وهو سبيل علم الإنسان بما حوله فالله سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا . ويقول تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ....﴾ أي أن السمع هو السبيل إلي العلم بعد الجهل، فعن طريق السمع يكتسب الإنسان علما ومعرفة تنمو من خلالها شخصيته وتتحقق بها ذاته، ومن ثمّ وجب شكر الله على هذه النعمة الجليلة، ولولا السمع والاستماع لتعطلت سبل الاتصال بين الناس، وفقد المجتمع أهم ما يميزه من علاقات بين أفراده قوامها التفاعل القائم على الاستماع .

وقد يزعم زاعم أن الناس يمكن أن يتعاملوا بالإشارة عوضاعن السمع، وهو في ذلك يجانب الصواب كثيرًا، فالإشارات نظام تعويض ابتكره المجتمع ليتعامل به الصم من أبنائه، ومهما تطورت نظم الإشارة فإنها لا ترقي لأن تكون لغة يتعامل بها كل أفراد المجتمع، ولا تتسع لتشمل كل حاجات الإنسان، وانفعالاته ومشاعره، هذا فضلا عن أن الإشارات نظام مجهد لمن يتعامل به، وقاصر مهما كان وضوحه عن تبليغ الرسالة بكل مضامينها، ولك أن تتصور أنك جلست محدثًا أحد الصم بالإشارات لمدة ساعة واحدة، لتقف على حقيقة هذا الجهد العضلي، والذهني الذي يمكن أن تبذله فى هذه الساعة مقارنًا بذلك الذي تبذله في تعاملك باللغة، وحينئذ سوف يتضح لك أن السمع نعمة كبري وجب أن تشكر الله عليها .

القدرة على التحدث :

هي ثالث أسباب التواصل بين أفراد المجتمع، وليس التحدث بمعزل عن الاستماع، فكلاهما أساس للتواصل الشفهي .

ومن أنعم الله أن وهب الإنسان هذه القدرة، وزوده بأسبابها، فخلق له اللسان والشفتين، وزوده بجهاز صوتي كامل، يساعده علي ممارسة التحدث، والقراءة بوصفها ثالث أسباب التواصل تدور في نطاق قوله تعالي :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ البلد : ٨ ، ٩ .

فالعينان واللسان والشفتان فضلاً عن الحنجرة، والأحبال الصوتية هي الحواس، التي خلق الله للإنسان، وأقدره بها على ممارسة التحدث والقراءة، ليصبح بذلك قادرًا علي التواصل بين غيره من أفراد المجتمع .

والكتابة فن تواصلي هيأ الله الإنسان لممارسته، فجعل له اليد، وأقدره على التحكم في حركة أنامله، وهداه إلي اكتشاف رموز الكتابة، ووهبه القدرة على تعلمها وتعليمها .

وبذلك أصبح قادرًا على الاتصال بغيره من الناس سواء من يتفاعلون معه مباشرة، وممن يتعاملون معه يوميًا، (عن طريق الاستماع والتحدث) أوعن طريق الاتصال بغيره ممن يبتعدون عنه زمانًا، أو مكانًا (عن طريق القراءة والكتابة) . وهكذا تكون عمارة الكون بالتواصل والتفاعل والمشاركة التي هي أساس جوهري للعمارة المادية للكون، فكل مظاهر العمارة المادية راجع في أصله إلي هذا التواصل بصورة أو أخري .

وإذا كانت فنون اللغة متصلة بعمارة الإنسان للأرض، فإنا لا نعدم اتصالها بقضية أخري لا تبعد كثيرًا عن حديثنا السابق وهي قضية الإيمان .

فنون اللغة وقضية الإيمان :

خلق الله الإنسان، واستخلفه في الأرض لغاية حددها ـ سبحانه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦.

وجعل الإيمان به وعبادته مرقاة إلي الجنة، والشرك به وعصيانه سبيلاً إلي النار .

ومن هذا المنطلق تحددت مسئولية الإنسان عن نفسه، وعن أعضائه، فهي وإن كانت مسخرة له في الدنيا، فإنها شاهدة عليه يوم القيامة .

يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء : ٣٦.

يقول تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ يس : ٦٥.

ويقول: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فصلت : ٢٠.

ويقول: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فصلت : ٢٢.

ولما كانت لكل عضو وظيفته، ولكل حاسة ممارساتها فإن مسئولية الإنسان تنحصر في هذه الممارسات .

وممارسة الإنسان الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة فضلاً عن كونها نتاج الحواس المنوطة بها فهي مسئولية قد ترقي به إلى أعلى منازل الجنة، أوتنحدر به إلى الدرك الأسفل من النار، فلا شك أن كلاً منها مسئولية ملقاة علي عاتق الإنسان .

ومن ثمَّ فقد أثني الله علي عباده الذين يحسنون الاستماع، ويتبعون أحسن ما استمعوا له يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الزمر : ١٧ـ ١٨.

وارتبط لفظ الاستماع والطاعة والإيمان فى غير موضع من القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ البقرة : ٢٨٥.

ـ وقوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾.

ـ وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾الجن: ١ ـ ٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ الجن : ١٣.

وإذا كانت الآيات السابقة تصف حال من استمعوا فقادهم الاستماع إلي الإيمان بالله والاهتداء بنور الإيمان، فإن القرآن الكريم يصف أحوال قوم آخرين استمعوا، وقادهم الاستماع إلى الكفر ومعصية الله ، والاستكبار ، ومن ذلك قوله تعالي:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة : ٩٣.

وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لقمان : ٧.

وقوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الجاثية ٧ـ ٨.

وللإيمان علاقة وثيقة بما ينطلق به اللسان تحدثًا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى (ﷺ) قال (اتقوا النار، ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة) صحيح مسلم .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله (ﷺ) " ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ " .

ونهي رسول الله (ﷺ) عن تكلف الفصاحة والتشديق في الكلام، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما- أن رسول الله (ﷺ) قال: " إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون " .

والقول السديد يطلقه الإنسان فيأمن به علي نفسه، وذريته، يقول تعالي : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ النساء : ٩.

والكلمة قد يطلقها صاحبها، فتصير شجرة وارفة مثمرة ، ينفع الله بها قائلها ومستمعها بما فيها من الخير، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إبراهيم: ٢٤،٢٥ . وعلى النقيض من ذلك فإن كلمة خبيثة يتحدث بها صاحبها، فتلقي به في جهنم، يقول سبحانه: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ إبراهيم : ٢٦.

وقد شقي قوم بحصائد ألسنتهم، وما قالوه بأفواههم، وقد روي القرآن عنهم وحذر منهم، ونهي الذين آمنوا عن اتباعهم، ومن ذلك:

ـ قولـه تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . آل عمران : ١١٨.

ـ وقولـه سـبحانه: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ النور : ١٥.

ـ وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ التوبة : ٣٠

ـ قوله تعـالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ الكهف: ٤: ٥.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الصف ٧ ـ ٨.

وما أكثر ما يظلم الإنسان نفسه، ويظلم غيره، ويوقع نفسه في شرك المعصية بكلمة يقولها، وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا من حصائد ألسنتهم ؟.

من أجل ذلك حذر الرسول الكريم من مزالق التحدث التي أشرنا إليها فيما تقدم (في الفصل الثاني) ومن أجل ذلك تجلت حكمة الله سبحانه، حيث لم يرد الأمر بالتحدث في القرآن الكريم إلا في آية واحدة، وجاء الأمر مقرونًا بالتحدث بالنعمة، وليس غير ذلك، بينما جاء الأمر بالاستماع في ثلاثة عشر موضعًا .

وليس أمر القراءة والكتابة ببعيد عن قضية الإيمان، فالقراءة والكتابة هما سبيل من يمارسهما إلي العلم والمعرفة، وإنما يوصف صاحبها بأنه عالم ـ وإن تفاوتت درجات العلم وتباينت وقد قال تعالي: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾، والقارئ مسئول عما يقرأ ـ وتأتي هذه المسئولية من أن الإنسان إنما يقرأ لغرض، وينفق في القراءة وقتا، فهو محاسب علي الغرض الذي من أجله يقرأ، إذ لكل امرئ ما نوي، كما أنه محاسب ـ أيضا ـ علي الوقت الذي ينفقه في القراءة ، فهو من عمره، إذ يُسأل المرء عن عمره فيما أفناه .

وقد أشرنا فيما تقدم (في الفصل الثالث) إلي أن الأمر بالقراءة في القرآن الكريم ورد في موضعين أمرا بقراءة القرآن الكريم ، وفي موضعين آخرين بالقراءة على إطلاقها أي قراءة كل ما يمكن أن يفيد به الإنسان في حياته، وفي ذلك إشارة إلي الموازنة بين هذا وذاك، ولا يخفي علي القارئ ما لقراءة القرآن الكريم من فضل، وإذا كان القرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه، فإن الكون وما يتضمنه من آيات، وما يكتشف فيه من علوم، من عند الله تعالي ـ أيضا ـ ومن ثمَّ كان التدبر في هذه الآيات والاطلاع علي ما اكتشفه العلماء لخدمة البشرية قراءة لا تقل أهمية عن قراءة القرآن .

والقارئ ـ وهو حر الاختيار فيما يقرأ ـ قد يقرأ كتابًا يقربه من الله، وقد يقرأ كتابا يبتعد به عن منهج الله، وقد يتعلم مما يقرأ ما يفيده في حياته،

ويجعله قادرًا على إفادة غيره به، وقد يتعلم منه ما يفسده ويفسد به غيره، ومن ثمَّ كانت مسئولية الإنسان عما يقرأ، وقد يعترض معترض قائلا: ومن أين لي أن أعلم إن كان هذا الكتاب أو ذاك سوف يقربني من الله أو يبعدني عنه ؟.

ونقول: إن الأمر ليس بهذه الصعوبة، فالإنسان يمكن أن يدرك ببساطة شديدة إذا احتكم إلى الفطرة السليمة التي فطر الله عليها عباده، وإلي العقل الواعي الذي يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب، وإن لم يكن القارئ قد بلغ درجة من النضج تؤهله لاختيار ما يقرأ فأولي به أن يختار له غيره من ذوي العقل والخبرة.

أما الكتابة فهي أيضا مسئولية من يمارسها فالكاتب إنما يكتب لينشر فكرا معينًا أو يعلم غيره، وهنا تكمن خطورة هذه المسئولية " فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلي يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة له وزرها ووزر من عمل بها إلي يوم القيامة " .

وقد توعد الله الذين يكتبون بأيديهم ويدعون أن ما كتبوه من عند الله، يقول تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة : ٧٩.

وقد يكون الكاتب ليس ممن ينشرون فكرًا، أو يعلمون أحدًا، وإنما هو فقط يدون حقًا، أو يكتب دينًا، وقد أمر الله من يمارس هذا العمل أن يؤديه بالعدل والحق. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن

يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ ﴾ البقرة :٢٨٢.

وبعد فإن كان الإنسان يمارس فنون اللغة استقبالاً، وتعبيرًا بما وهبه الله من أسبابها، فإن خير ما يمكن أن يستقبله الإنسان استماعًا وقراءة، وخير ما يعبر به تحدثًا وكتابة هو القرآن الكريم، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وصدق رسول الله (ﷺ) إذ قال عن القرآن الكريم: " فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغي الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبًا، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدي إلي صراط مستقيم ."

اللهم اجعلنا ممن يعملون به ويدعون إليه ..... آمين

السيرة الذاتية

لفضيلة الدكتور/ أحمد عبده عوض

الموقع على الشبكة الدولية

www:ahmedabdouawad.com

المؤهل :

* حصل على الماجستير والدكتوراه فى الدراسات اللغوية والإسلامية من عام ١٩٨٥م إلى عام ١٩٩٢م، وعمل معيدا، ومدرسًا مساعدًا، ثم أستاذًا بالجامعة ذاتها .

* أشرف على عشرات الرسائل فى الماجستير والدكتوراه داخل مصر وخارجها .

* عمل أستاذًا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة من ١٩٩٥إلى ٢٠٠٠م وأثناء ذلك كانت له برامج دينية ثابتة فى إذاعة القرآن الكريم بمكة المكرمة، ومشاركات فى الصحف السعودية، ومحاضرات فى نادى مكة الثقافى الأدبى .

التخصص :

* أستاذ العلوم اللغوي والإسلامية بجامعة طنطا .

* داعية وكاتب اسلامى - عضو إتحاد الكتاب المصرى .

* عضو جمعية حماة العربية .محاضر بمعهد الإذاعة والتليفزيون .

* متحدث فى البرامج الدينية فى إذاعة القرآن الكريم، وفى قنوات التليفزيون المصرى والعربى الأرضية والفضائية .

الأنشطة :

* يشارك فى المؤتمرات اللغوية والإسلامية والتربوية داخل مصر وخارجها .

* يشارك بدور بارز فى الدعوة الإسلامية فى الكتابة ، فى المجلات والصحف ، وفى اللقاءات اليومية والإسبوعية الثابتة فى المساجد .

* يشارك فى دورات تدريب الأئمة والخطباء ، ولقيادات .

* المشاركة مع الهيئات الثقافية والدينية فى الموضوعات والقضايا التى تعالج مشكلات الشباب ، وفى المسابقات الثقافية والدينية .وفى إلقاء خطبة الجمعة على مدى ثلاثين عامًا متواصلة فى موضوعات تتصل بمفهوم المسلم المعاصر، وقضايا التثبيت والإيمان ومواجهة مشكلات الحياة .

الإهتمامات :

١- الكتابة الإسلامية والتأليف . ٢- العناية بدراسة القضايا الإسلامية .

٣- العناية بتأصيل الفكر الإسلامى ٤- الدفاع عن اللغة العربية ، وبيان أهميتها للدين الإسلامى .

وإعتداله، ومناسبته لظروف الناس وأحوالهم ،وتحبيب الناس فى الإسلام .

٥- رصد الأخطاء اللغوية ، وتشخيصها، والتصدى لعلاجها .٦- العناية بقضايا التربية الإسلامية القرآنية

٧- بيان وسطية الإسلام وسماحته ، ويسره ، وإعتداله ، ومناسبته لظروف الناس وأحوالهم ، وتحبيب الناس فى الإسلام .

٨- تذكير الناس بورع السلف، وكيفية محاسبة النفس ، وتصفية أعمال القلوب، وكيفية التعرف إلى الله عز وجل .

المؤلفات المنشورة

١ـ فنون اللغة (رؤية فنية ، وملامح قرآنية) . البيت بيتك .

٢ـ التقوى فى القرآن الكريم (دراسة لغوية تفسير إحصائية) . دار الصحابة بطنطا.

٣ـ العدل فى القرآن الكريم (بين العلم والكون والإيمان) . المكتبة القيمة بالقاهرة .

٤ـ الإشارت العلمية فى القرآن الكريم (بين العلم والكون والإيمان) المكتبة القيمة بالقاهرة .٥ ٥ـ سلام والبعث الحضارى . مركز الكتاب للنشر ، القاهرة.

٦ـ فضل التحدث باللغة العربية ، والإلتزام بها . مركز الكتاب للنشر ، القاهرة.

٧ـ الموت حقيقة منسية، مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٨ ـ مداخل تعليم اللغة العربية ـ دار الندى للنشر.

٩ـ معالم شهر الصيام ـ مشترك ـ مركز الكتاب للنشر .

١٠ـ قضايا البيئة من منظور إسلامى ـ مشترك ـ دار الندى للنشر .

١١ـ تحقيق مخطوط (الفرائد والقلائد) للإمام الثعالبى ـ مشترك .

١٢ـ تحقيق مخطوط (غور الأمور) للحكيم الترمذى ـ مشترك

١٣ـ الزواج بين الدين والطب ـ مشترك .

١٤ـ المخدرات بين الدين والطب ـ مشترك .

١٥ـ نورانيات سورة يوسف عليه السلام .

١٦ـ نورانيات سورة التوبة .

١٧ـ تعليم اللغة العربية بين الفروع والفنون

١٨ـ تحقيق مخطوط (الصراط المستقيم) للفيروز أبادى ـ مشترك .

١٩ـ صفات أهل القرآن الكريم .

٢٠ـ دراسات فى علوم القرآن الكريم .

٢١ـ تحقيق مخطوط (بحر الكلام فى علم التوحيد).

٢٢ـ تحقيق مخطوط (تاريخ المساجد الثلاثة) .

٢٣ـ تحقيق مخطوط (الدرة الفاخرة) .

٢٤ـ تحقيق مخطوط (لطائف أهل الإلهام) .

٢٥ـ تحقيق مخطوط (مسائل القرآن للرازى) .

٢٦ـ أدب الطفل العربى رؤية إسلامية .

٢٧ـ الإعداد لمعجم عن الإمام النورسى .

٢٨ـ الأخطاء الشرعية فى الأمثال العامية .

٢٩ـ الخط فى التراث العربى الإسلامى .

٣٠- خير الزاد فى صلاح العباد .

٣٢- التسامح فى الإسلام (صور ومقابلات)

٣٣- الوسطية والإعتدال فى المنهج الإسلامى .

٣٤- طاعة الله ورسوله الكريم وأولى الأمر .

٣٥- أصول المنهج العلمى عند العرب والمسلمين .

٣٦- قراءة تأملية فى فكر الإمام الغزالى .

٣٧- دور المضمون الإعلامى فى النهضة الثقافية للأمة الإسلامية .

٣٨- الإسلام والبعث الحضارى .

٣٩- اللغة العربية جامعة للفكر العربى الإسلامى.

٤٠- قضايا إيمانية حول أسماء الله الحسنى .

٤١- أسماء القرآن الكريم .

٤٢- التربية الإيمانية فى القرآن الكريم .

٤٣- سبيل الوصول إلى بلاغة الرسول . (ثلاثة أجزاء) .

٤٥- خواطر قرانية إعجازية .

٤٦- تجليات الإيمان فى حياة المسلم .

٤٧- سمات المنهج العلمى والإعلامى فى الإسلام .

٤٨- القراءة العربية مدخل قرآنى .

٤٩- الكتابة العربية مدخل قرآنى .

٥٠- تدريس التربية الإسلامية .

٥١- الرسول (ص) فى القرآن الكريم .

٥٢- آداب المعاملات فى الإسلام .

٥٣- الأخطاء اللغوية ، وخطورتها فى التحدث والكتابة .

٥٤- موجبات الرحمة - مشترك .

٥٥- عزائم المغفرة - مشترك .

٥٦- أنوار المنان فى سيدة آى القرآن .

٥٧- حوار الحضارات والأديان فى الميزان .

٥٨- الحوار فى الإسلام ودوره فى الدعوة والتربية تاتلاتلاوالثقافة .

٥٩- أخلاقيات الحرب فى السيرة النبوية .

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة.	٥
تمهـــــيد عن فنـــــون اللغـــة	١١
الفصل الأول : الاستماع	١٩
ثانـيا : كيف يحدث الاستماع ؟	٢٦
ثالثـا : أنواع الاستماع	٣١
رابـعا : أهمية الاستماع	٣٥
خامسا : الاستماع وتلقي علوم الدين	٤٠
سادسا : كيف تكون مستمعا جيدا ؟	٤٢
سابـعا : الاستماع كما عبر عنه القران الكريم	٤٥
الفصل الثاني : التحـــــدث	٦٧
مقد مة عن التحـدث	٦٩
أولا : مفهوم التحدث	٧٢
ثانيـا : كيف نتحـــــــدث ؟	٧٥
ثالثـا : لماذا نتحـــــــدث ؟	٧٩
رابعـا : أهمية التحـــــدث	٨٣
خامسا : مزالق التحدث وخطورته	٨٦
سادسا : كيف تكون متحدثا جيدا ؟	٨٩
سابعـــا : التحدث في القران الكريم ؟	٩٣
الفصل الثالث : القراءة	١٠٧
أولا : مفهـــوم القـــراءة	١١١

الموضـــــوع	الصفحة
ثانيـا : كيـف تحـــدث القرآة ؟	١١٤
ثالثـا : نوعـــا القـــراءة ؟ .	١١٩
رابـعا : لمـاذا نقـرأ ؟	١٢٢
خامسا : أهمية القـراءة ؟	١٢٧
سادسا : كيف تكون قارئا جيدا ؟	١٢٩
سابعا : القراءة كما عبر عنها القران الكريم	١٣١
الفصل الرابع	١٤٩
أولاً : مفهوم الكتابة	١٥٥
ثانـياً : كيف نعبر بالكتابة	١٥٧
ثـالثـا : نوعا الكتابة	١٦٢
رابعًا : أهمية الكتابة	١٦٦
خامسًا : كيف تكون كاتبًا جيدًا	١٧٠
سادسًا : الكتابة كما عبر عنها القرآن الكريم	١٧٣
فنون اللغة وعمارة الكون	١٩٠
القدرة على التحدث	١٩٥
فنون اللغة وقضية الإيمان	١٩٦

البيت بيتك
موبايل : ٠١١٠٤٧٧٤٣٥ - ت : ٤٢١٤٥٢٠٥